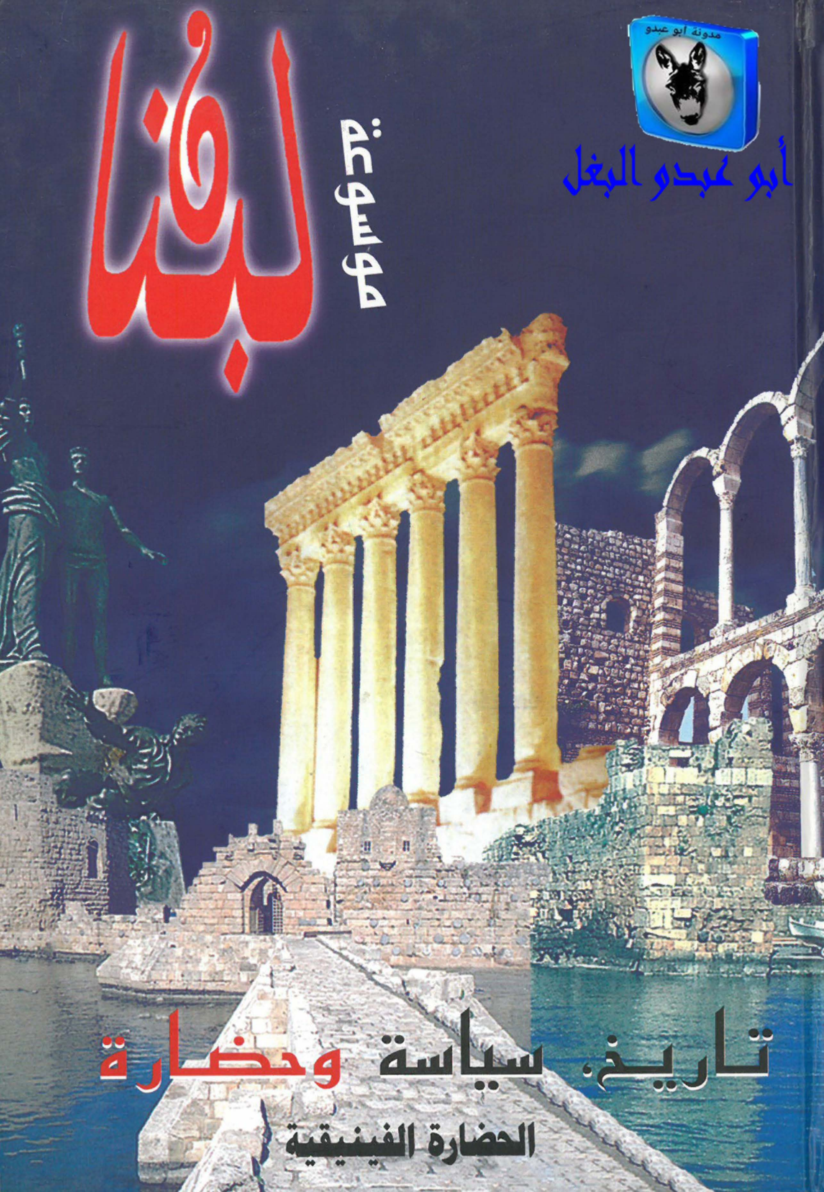

مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
موسوعة لبنان
تاريخ، سياسة وحضارة
الحضارة الفينيقية



لبنان

تاريخ سياسة وحضارة

بين الأمس واليوم

الجزء الرابع

الحضارة الفينيقية

جوزف صقر

مقدّمة

لقد كتب الكثير عن الحضارة الفينيقية حتى امتلأت مجلدات ورفوف. إلاّ أن عملاً موسّعاً عن تاريخ لبنان لا يمكن أن يكون متكاملاً إذ لم يكن لحضارة فينيقيا جزء أساسي في هذا العمل نطلّ من خلاله على ما لعبته المدن الفينيقية (جبيل، صيدون، صور، وغيرها) من أدوار أساسية في تقدّم الشعوب القديمة ورقيّها، وما تركته من إنجازات في ميادين مختلفة ما زالت تطلّ علينا في وجوه متعدّدة من حياتنا اليومية. وقد يكون الانجاز الأعظم الذي قدّمه الفينيقيون للعالم القديم والحديث هو الحروف الأبجدية التي انتشرت في معظم أنحاء العالم وأصبحت اليوم أساساً للعديد من أبجدياته. وقد نشر الفينيقيون أبجديتهم في أرجاء حوض البحر المتوسط مستفيدين من كونهم بحّارة بارعين في مخر عباب البحر لممارسة التجارة، مهنتهم الأساسية، وبيع ما تبدعه الأيادي الفينيقيّة من أوانٍ وتحفٍ وقماش أرجواني، وقد ساعدتهم الأبجديّة في تثقيف بعض الشعوب ومصادقة بعضها الآخر وبناء المستعمرات والمدن المختلفة التي تناثرت على شواطىء البحر المتوسط وكأنها درر نادرة سقطت من عقد عشتروت، إلهة الجمال وإحدى أبرز الآلهة لدى الفينيقيين وشعوب الدول المجاورة التي عاصرتهم.

في الصفحات التالية من هذا الكتاب، نستعرض معاً أبرز محطات الحضارة الفينيقية والمساهمة التي قدّمها هذا الشعب الفذّ في مجالات تقدّم الإنسانية جمعاء.

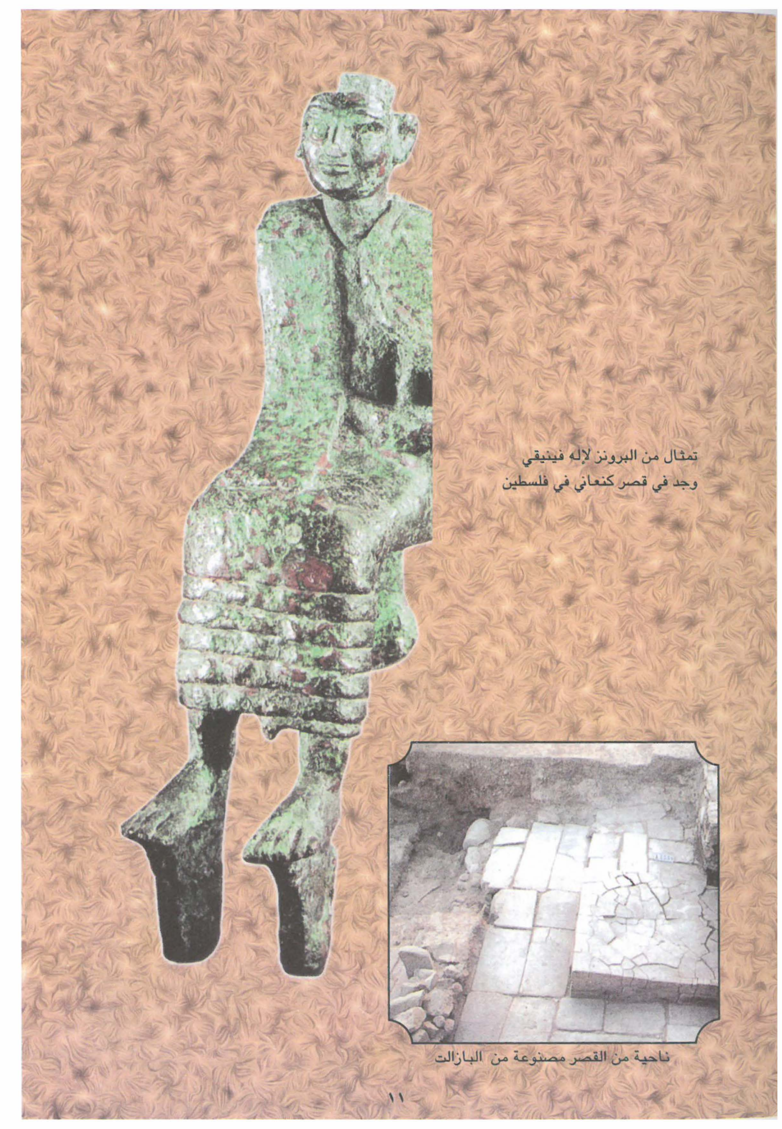
ملحق الصور



الإله بعل



هيكل الأنصاب في جبيل

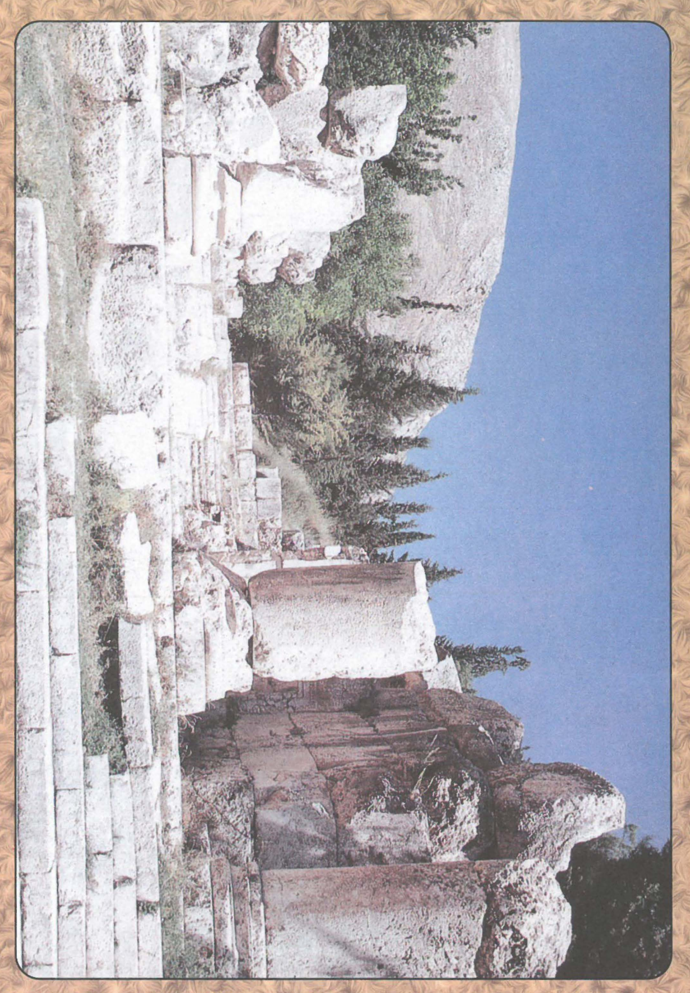


تمثال من البرونز لإله فينيقي
وجد في قصر كنعاني في فلسطين

ناحية من القصر مصنوعة من البازالت



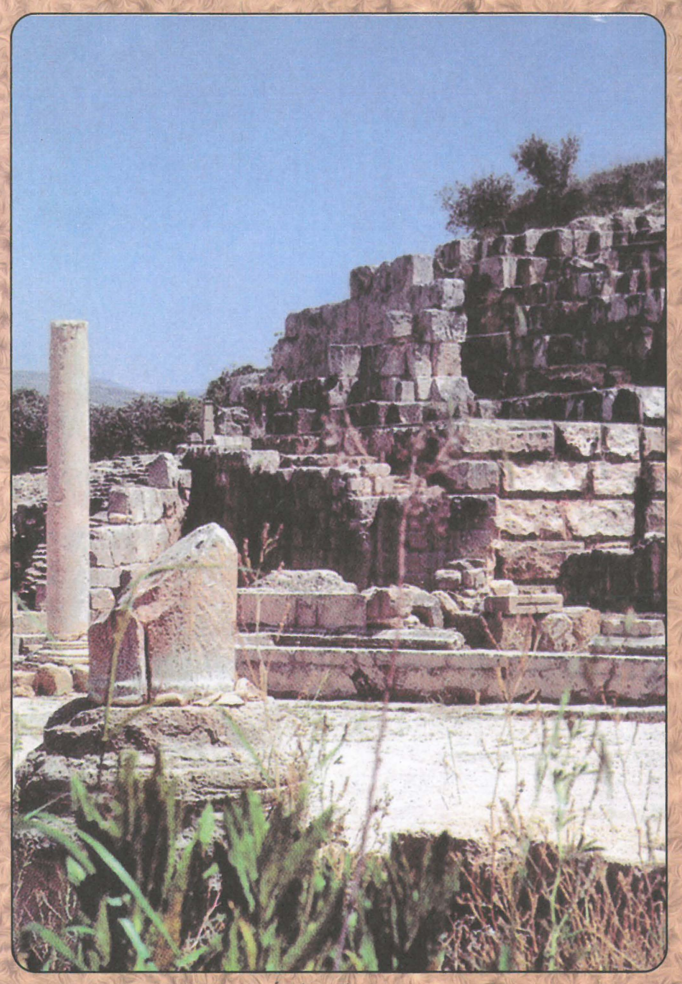
الأرز مورد الخشب الأول



معبد نيحا



صورتان لمعبد أشمون الأفريقي



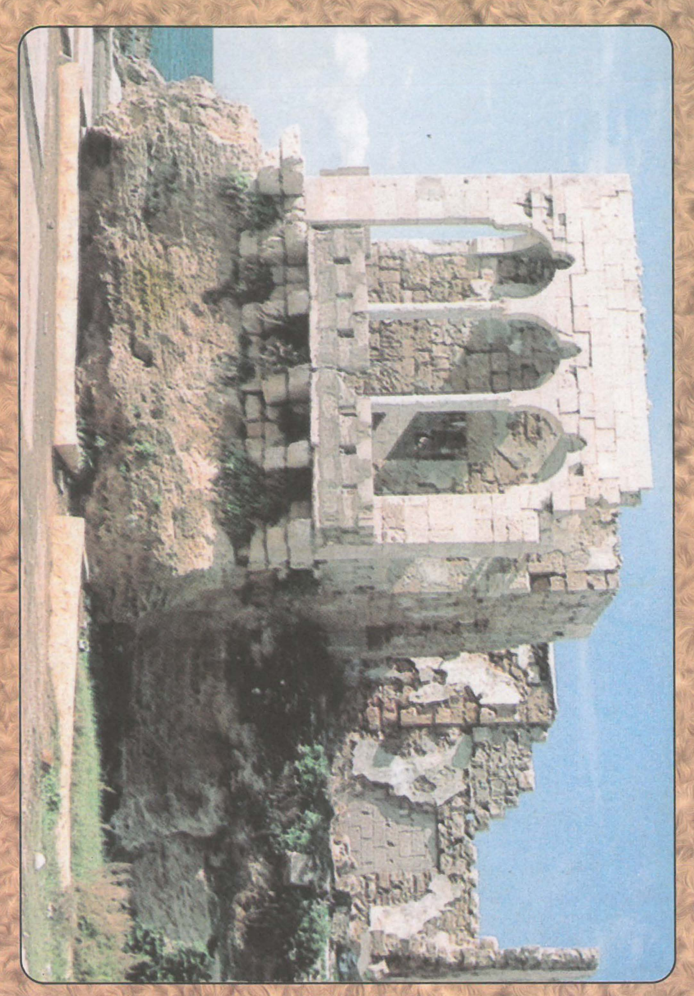
من معبد أشمون أيضاً



هكذا كان المسيحيون يقدّمون طعاماً للوحوش الكاسرة



رسم للسيد المسيح يعود إلى القرن الرابع



آثار فينيقية في البترون



نقش على ناووس أحيرام الثالث عشر ق.م.



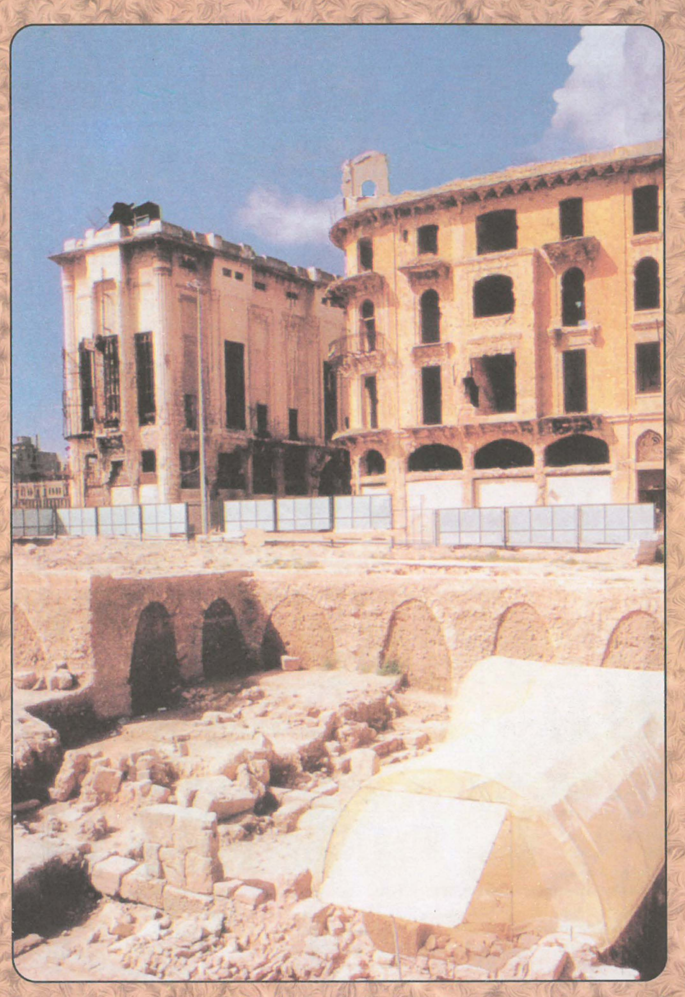
أنقاض القصر الملكي في أوغاريت



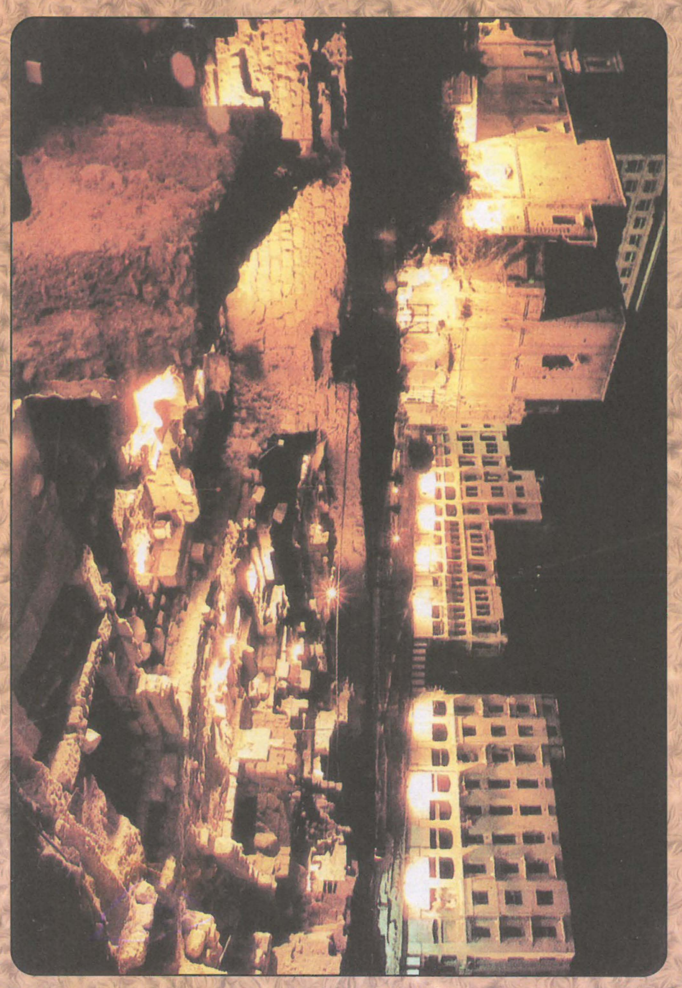
تماثيل مصنوعة من البرونز المغطى بالذهب



نواويس حجرية في صور



مشهد من حفريات بيروت الحديثة



مشهد آخر من حفريات بيروت الحديثة









نماذج من كتابات بأبجدية أوغاريت

الفصل الأوّل

الديانة الفينيقيّة

أسطورة الخلق

محت الأيام والسنون والقرون ما خطّه الفينيقيون من كتب ومؤلفات عن ديانتهم وآلهتهم باستثناء ما ورد في ملاحم أوغاريت. وكلّ ما نعرفه عن هذا الموضوع يعود إلى ما وصلنا من معلومات ضئيلة تركها بعض المؤرخين الإغريق والرومان، بالإضافة إلى ما تركه فيلو الجبيلي ولوسيان السموساطي السوري. وهذه الآثار الضئيلة يشوبها الغموض في نواحٍ كثيرة. كما أن ما ورد عن هذا الأمر في الكتاب المقدّس (العهد القديم) كان عبارة عن إشارة أو رمز ينقصهما الوضوح. فالعبرانيون كانوا مناوئين للفينيقيين لجهة المعتقدات الدينية لأنهم كانوا يكثرون من الآلهة، فيما يرفض العبرانيون الشراكة ويتمسكون بعبادة الله، الإله الواحد.

وإلى جانب النقص في الآثار المكتوبة، هناك نقص أيضاً في الرسوم والتماثيل التي لم يعثر منها إلاّ على ما نقش على المسكوكات النقديّة. وما تمّ العثور عليه في قبرص (وكانت مستعمرة فينيقيّة) من أصنام صغيرة الحجم قد تكون تمثّل بعض الآلهة التي عبدها الفينيقيون. ولم يُعثر على أيّ نقش على الصخور التي تكثر على الشاطىء الفينيقي من شماله إلى جنوبه.

ويعتبر المؤرّخ إيسبوس أن الشعب الفينيقي أدخل في عبادته أجراماً سماويّة وراح يؤمن بقوتها وقدرتها وينسب إليها ما يشهده من عجائب الطبيعة وخوارقها. وكان الشعراء والأدباء الفينيقيون يؤلفون الروايات والأشعار ناسبين فيها قوى خارقة وأعمالاً عظيمة إلى آلهة وهميّة لا وجود لها.

وممّا يرويه إيسبوس استناداً إلى المؤرّخ المعروف عند الإغريق باسم هرمس، وإلى مخطوطات عُثر عليها في بعض المدن الفينيقيّة، أن في المعتقدات الفينيقيّة القديمة تصوّراً لبداية العالم يمكن إيجازه على الوجه التالي:

«عند بدء الخليقة، كان الهواء شديداً وكان هناك ظلام دامس وفراغ لا بداية له ولا نهاية. فابتدأت عناصر الهواء بالاتحاد في ما بينها تحت تسمية «باثوس»، وهي كلمة تعني الإرادة. ونتج عن هذا الاتحاد «موت»، أو الوحل، وهو مزيج من الماء والتراب، ومن هذا المزيج تكوّن العالم. وبعد ذلك، خلقت كائنات حيّة غير عاقلة، ومنها تولّدت أخرى عاقلة تشبه البيض وتسمّى «حرّاس السماء». ومن هذه الكائنات تولّدت الشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم».

«ثم بدأت حرارة الأرض والبحار ترتفع وقد غمرها الهواء، وانتشرت الغيوم في السماء، وهبّت رياح شديدة، وحدثت زوابع فأمطرت السماء بغزارة، وأومضت البروق وهدرت الرعود. وراح العاقلون يتنقلون من مكان إلى آخر، برّاً وبحراً، وأخذوا يقرّبون التقادم إلى آلهة اتخذوها لهم من نتاج الأرض».

«بعد ذلك، تولّد من الريح «كوليبيا» وامرأته الليل «باو» كلّ من «أون» و«بروتوكونز» والثاني هو أوّل من اكتشف طريقة تطعيم الأشجار العقيمة من الأشجار المثمرة. ومن هذين وُلد «جينس» و «جينا» اللذان سكنا فينيقيا وأدخلا إليها عبادة الشمس (بعل سامان)».

«ثم ولدت مخلوقات جديدة، هي النار واللهب والنور، ومنها انبثقت مخلوقات أخرى عملاقة وبارعة، وسادت على جبال دُعيت باسمها، كجبل الطور ولبنان ولبنان الشرقي وحرمون».

«بعد ذلك، بدأت الاكتشافات، فأقام هيبسورانيوس (شميم رومس) مسكناً له في مدينة صور بناه بالقصب والقشّ. أما أخوه أوزوس (إيسوس) فقد كان أوّل من ارتدى ثياباً صنعها من جلود الحيوانات التي كان يصطادها. وكان أوزوس أيضاً أوّل من سافر في البحر بعدما صنع مركباً من أغصان الشجر. وعندما وصل إلى جزيرة صور، أقام أعمدة للنار والريح، وقدّم قرابين من دماء الحيوانات التي ذبحها».

وفي معتقد الفينيقيين أن أليون كان أصل الجنس البشري، وأنه كان يقطن في مدينة بيبلوس (جبيل) مع امرأته بيروثا. وولد الإثنان أورانوس (السماء) الذي تزوّج

من أخته كاه (الأرض) وأنجب الاثنان أربعة بنين، هم إيلوس (كرونوس) وباتولوس وداكن وأتلاس. وقد تمرّد إيلوس على والده فأخذ الملك منه بعدما قتل ولده ساديد وإحدى بناته. لكن أورانوس تمكّن بعد حين من استعادة ملكه المغتصب وقتل ابنه إيلوس الذي ساح في العالم وبنى مدينتي أثينا وأتيكا في بلاد الإغريق، ونصّب تاوت ملكاً على مصر.

ومع الأزمنة المتلاحقة، تواصلت الاكتشافات، فابتكر أغريوس وهاليوس، وهما من سلالة شميم رومس، الصيد البرّي والصيد البحري. ثم جاء بعدهما من اكتشف معدن الحديد ووسائل استخدامه. أما خوسر فقد اهتمّ بالسّحر وصنع أوّل سنارة للصيد والطعم وخيط الصيد. كما ابتكر زورقاً وسافر به في البحر. فاعتبر إلهاً ودعي مليخيوس (الملاح).

وفي الفترات التي كان يسيطر فيها القحط والجفاف، كان الفينيقيون كغيرهم من الشعوب القديمة، يرفعون أيديهم إلى السماء متضرّعين واعتبروها إلهاً وسمّوها بعل شميم (إله السماء).

من خلال ما تقدّم، يمكن القول أن معتقد الفينيقيين بالنسبة إلى بداية العالم يشبه إلى حدّ بعيد المعتقدات التي سادت في زمانهم، وهي ليست بعيدة من معتقدات العبرانيين وممّا ورد في العهد القديم عن هذا الموضوع. ويمكن القول أيضاً أن الفينيقيين ألّهوا قوى الطبيعة، وفي مقدّمها الشمس التي اكتشفوا فيها سبباً مهمّاً من أسباب نموّ مواسمهم الزراعيّة. وبما أن الزرع ينمو في تراب الأرض، فكانت الأرض معبودهم الثاني لأنّها تتمّ مهمّة الشمس في إحداث الخصب.

وكان طبيعيّاً أن يعبد الفينيقيّون قوى الخصب بصفتهم شعباً يعتمد في حياته الغذائية على ما تنتجه الأرض، بالإضافة إلى تربية الماشية التي لا تتمّ من دون وجود مراعٍ خصبة. وبما أن الأمطار غير متوفرة دائما، عبد الفينيقيون المطر والصواعق والسماء لارتباطها بفكرة الخصب والإنتاج وتجدّد الحياة.

ولكي يستطيع الفينيقيون اللجوء إلى هذه الآلهة، أو إلى إحداها، عند الحاجة لاستدرار عطفها ورحمتها، جسّدوا هذه الكائنات والظواهر الطبيعيّة في أشكال

بشريّة وأضفوا عليها صفات إنسانيّة، وأخذوا يناجونها ويقدّمون لها القرابين والهدايا المختلفة لاسترضائها. ولم يلبث الفينيقيون، في مراحل لاحقة من ديانتهم، أن بدأوا بتأليه بعض البشر من ملوكهم وأبطالهم. ولعلّهم تأثروا في ذلك بالشعوب التي أحاطت بهم والتي عبرت أرضهم، وخصوصاً المصريين الذين كانوا يؤلهون فراعنتهم ويعبدونهم، وإن ثاروا عليهم في بعض الأحيان. وفي هذا المجال، يؤكد المؤرخ سنكن ياتون أن الفينيقيين ألّهوا أحياناً بشراً يتمتعون بدور سياسي أو اجتماعي مهمّ، وعبدوهم بعد مماتهم.

الآلهـــة

هناك تسميتان أساسيّتان للآلهة عند الفينيقيين، الأولى «بَعَالِيم» ومفردها بعل، والثانية «ألونيم» ومفردها إيل. وقد يُسمّى الإله أيضاً «ملك» مثل ملكارت، إله مدينة صور، أو «أدمون» ومعناها السيّد، كالإله أدونيس.



نقش للإله بعل وجد في أوغاريت

وبما أن المدن الفينيقيّة كانت متعدّدة ومنفصلة عن بعضها سياسيّاً، فقد كانت لكلّ مدينة آلهتها الخاصة بها. وفي الوقت نفسه، كان هناك إلهان رئيسيّان عمّت عبادتهما المدن الفينيقية كلّها هما إله السماء، وكان بمنزلة الأب، وإلهة الأرض، وهي الإلهة الأم. وأحياناً، كان هناك إله ابن شاب، وكان يرمز إلى النبات الذي ينبت

في الأرض الأم. وهذا الإله يموت في كلّ عام ليعود فيبعث حياً في العام الذي يلي. وهذه العقيدة تُرجمت حقيقة رائعة في الديانة المسيحيّة بموت المسيح وقيامته التي غلبت الموت.

أما أهم الآلهة عند الفينيقيين فهي:

إيل: وكان يرمز بهذا الاسم إلى كبير الآلهة، وكان البعض يدعوه «الإله - الآب»، فهو أبو الآلهة التي انحدرت منه جميعها. ويرجّح أن مقامه كان في منطقة أفقا. وكان الفينيقيون يعتبرونه طاعناً في السنّ. أما زوجته فكانت تدعى أشيره (أثيرا)، وكانت مدينة أوغاريت مركز عبادتها.

بعل: وهو إله الجبال والعواصف والصواعق، ويرتبط اسمه أيضاً بالمطر الذي يمثّل الخير بالنسبة إلى الفينيقيين، فيما ترمز العواصف إلى الأمور السيّئة. وكانت عبادته منتشرة في كلّ من صور وأرواد وصيدون ومرقد (بيت مري). وعُرف الإله بعل أيضاً باسم هَدَدْ (أَدَدْ). وقد عمّت عبادته المدن الفينيقيّة في مرحلة متأخرة من الحياة الدينيّة لدى سكان تلك المدن. ولهذا السبب، لم يُبنَ له معبد إلاّ بعد تدخّل كبير الآلهة إيل.

عَلِيَّان: هو ابن الإله بعل، وكان شفيع المطر والغلال والينابيع والبحر. وفي أحيان كثيرة كان يُدعى باسم أبيه، لكنه يلي الإله إيل مرتبة ومقاماً وقيادة، على رغم فتوّته. وكان عَليّان يُسرّ بالاحتفالات والأعياد التي كانت تقام لتكريمه واستعطافه، فيقابل مكرّميه بالرضى على ما يقدّمونه له من ذبائح وقرابين.

... ولم يكن البعل واحداً في شكله لأنه ورد أنه كان لكلّ مدينة فينيقية بعل ينسب إليها كبعل فاغور وبعل زبوب وبعل بيريت وبعل ترز وبعل ترسوس وبعل كاد وبعل حامون وبعل تامور وبعل شاليشا. وكان كثيرون من الناس يضيفون اسم البعل إلى أسمائهم تبرّكاً كقولك أنيبال وأبيبال وغيرهما، فإن كلمة بال في آخر الإسم هي اسم البعل عندهم.

تاريخ سورية - جرجي يني

الداغون: اهتمّ

بأمور المياه والمطر وفاقت شهرته شهرة أبيه الإله إيل. لكنه خسر هذه الشهرة لاحقاً لمصلحة أخوته.

مُوْتْ: هو شقيق عليّان، وكان في البداية يهتمّ بأمور الحصاد والأرض، ثمّ أصبح عدوّاً لشقيقه وصار يمثّل إله الجحيم. ولم يكن له من لقاء مع شقيقه لأنه عندما يكون الثاني على وجه الأرض يكون الأوّل تحتها، أو في الجحيم، والتنافس بينهما يمثّل تعاقب فصول السنة وتغيّر أحوال الطبيعة بين فصل وآخر.

عَنَاة: ابنة الإله بعل وشقيقة عليّان. كانت محاربة وقد ساعدت شقيقها عليّان في صراعه مع أخيه موت، كما ورد في إحدى ملاحم أوغاريت. وكانت تدعى أيضاً «سيّدة السماوات» و«العذراء».

ملكارت: هو في الأصل إله الشمس، واسمه يعني «ملك القرية». وكان الإله الأعظم في صور، وخصوصاً في عهد الملك أحيرام الأول الذي بنى له هيكلاً كبيراً وفخماً. وكان الصوريّون يحتفلون بعيده مرّة كلّ عام. ولقبّه الصوريّون لاحقاً بإله البحر. وبعدما بنوا قرطاجة، انتقلت عبادته إليها، وإلى مستعمرات فينيقيّة أخرى مثل قبرص. وقد وصلت عبادته إلى الإغريق. ويُقال أن ملكارت هو الإله نفسه الذي ورد ذكره في الكتاب المقدّس (العهد القديم) تحت تسمية «ملوك» والذي كانت تقدّم إليه ذبائح بشريّة من الأطفال.

رشف: كان يمثّل البرق والضوء، وكان معبده في جبيل. وكانت له علاقة بالشمس، لذلك كان يلقّب بإله الموت والخصب، لأن الشمس قادرة على لعب هذين الدورين. وقد ذاع صيته فانتقلت عبادته إلى الأموريين والمصريين (مرحلة الدولة الحديثة) الذين دعوه «أرشوب»، وكذلك الإغريق.

أشمون: إله الصحة والشفاء. كانت صيدون مركز عبادته الأساسي. وقد أطلق اسمه على عدد من ملوكها. وكان يُرمز إليه بحيتين ملتفّتين حول عصا. وقد أصبح هذا شعار مهنة الطبّ في أيامنا هذه. وقد بنى له الصيدونيّون معبداً مهمّاً في مدينتهم، وكانوا يحتفلون سنويّاً بموته وقيامته منتصراً على الموت، مثل الإله أدونيس. وفي مرحلة لاحقة، انتقلت عبادة أشمون إلى مدينة بيروت، ثم عمّت

المدن الفينيقيّة كلّها. وتخطّت بعد ذلك الشاطىء الفينيقي لتنتقل ءى قبرص وقرطاجة. وجاء ذكره أيضاً في نقوش وجدت في جزيرة سردينيا.

أدون (أدونيس): وهو إله شاب يمثّل الخصب وتجدّد الطبيعة في فصل الربيع. وتركّزت عبادته في مدينة جبيل وفي أفقا. اسمه يعني «السيّد»، وكان يُسمّى أيضاً تموز. كان الجبيليّون يقيمون له احتفالاً سنوياً يبدأ بموته وينتهي بعد أيّام بقيامته. وقد استمرّت عبادته مع زوجته عشتروت حتى مجيء الرومان.

عشتروت: زوجة أدونيس وإلهة الحبّ والجمال والخصب. وهي أشهر وأهمّ إلهة عبدها الفينيقيّون، وعبدتها شعوب أخرى تحت أسماء مختلفة. ففي قرطاجة عبدت تحت اسم «تانيت»، وفي بلاد ما بين النهرين سُمّيت عشتار، وسمّاها الإغريق «أَسْتَرَات» وكان الفينيقيّون يحتفلون بعيدها خلال شهر أيلول الذي كرّسوه لها كلّ عام. وفي المعابد العديدة التي بُنيت لها، كان يتمّ ما يُسمّى «البغاء المقدّس» حيث كان عدد من الفتيات العذارى يبذلن عذريّتهن لهذه الإلهة كتعبير عن الإبقاء على الحياة وديمومة النسل.

ومن الآلهة الأخرى التي عبدها الفينيقيّون الآلهة «شمش» (الشمس) و«يمّ» و «يوم» و«شهر» (القمر)، بالإضافة إلى بعض مظاهر الطبيعة كالجبال والأشجار والينابيع. وقدّسوا بعض الأنهار، مثل نهر الأوّلي الذي كان يُدعى «أسكليبيوس».

الطقوس الدينيّة والأعياد

إن الطقوس الدينيّة عند الفينيقيين كانت تكتسب أهميّة كبيرة طالما أن العبادات كانت في مجتمعهم كالعمود الفقري، كما يقول المؤرّخ كونتينو في كتابه «الحضارة الفينيقيّة». وكانت الاحتفالات الدينيّة تقام في المعابد المختلفة برئاسة رئيس الكهنة. وفي بعض الأحيان، كان الفينيقيّون يقدّمون إلى الآلهة ذبائح بشريّة من الأطفال. وهذه عادة كانت منتشرة لدى الشعوب الساميّة، كالأموريّين وغيرهم. لكن هذه الشعوب استبدلت الذبائح البشريّة بأخرى حيوانيّة لاقتناعها بأن الله يرفض التقادم البشريّة.

والسبب الذي دفع الفينيقيين إلى هذا النوع من الذبائح هو تعرّضهم الدائم للمخاطر بسبب أسفارهم الكثيرة التي كانت تفرضها مهنتهم كتجار. وكان إحراق الأطفال الرضّع يتمّ أيضاً إذا تعرّضت المدينة لخطر ما، أو عند تدشين مشروع عمراني كبير. ويُرجّح أن الفينيقيين قد تخلّوا تماماً عن هذه العادة خلال القرن السادس ق.م.

وفي قرطاجة، كان يُنتخب شاب كلّ سنة بالقرعة ليقدّم ذبيحة إلى آلهة المدينة، وكان أهمها الإله ملكارت. وإذا استدعى الأمر تضحية أكبر، كان الوالدان يقدّمان ابنهما الوحيد، وهو أعظم الضحايا عند القرطاجيّين.

وتقدمة الضحايا كانت تتمّ على أيدي الأمّهات اللواتي كنّ يسلّمن الإله، وهو مفتوح اليدين وجوفه يتأجّج بالنار، أطفالهنّ، فيتدحرج الطفل إلى جوفه. وفي هذه الأثناء، يرفع الكهنة أصواتهم ويصرخون مع الشعب المحتشد في المعبد لكي تخفي أصواتهم صوت الطفل المرسل إلى حتفه فلا يسمعه أحد، وخصوصاً أمه.

أما الأعياد الدينيّة عند الفينيقيين فقد كانت تستمرّ فترة طويلة وترتدي طابع

العظمة والجلال. وبما أن المعابد كانت بعيدة عن المدن، فقد كان الناس ينتقلون جماعات جماعات إلى مراكز العبادة للاحتفال بعيد إله معيّن. والعيد الأهم كان ما يُسمّى «الأدونيسيّات»، وكان يُحتفل به في أواخر شهر حزيران، ومباشرة بعد الحصاد، بشعائر دينيّة تحيي ذكرى موته وقيامته.

ويبدأ الاحتفال بتوجّه النساء إلى الحقول المجاورة لنهر إبراهيم لكي يفتّشن عن الإله القتيل. ثم يدخلن الهيكل، والحزن يغمرهنّ، ويبدأن بالقرع على صدورهنّ ويشققن الجيوب ويطلن البكاء والنحيب. وتستمرّ هذه الشعائر أسبوعاً كاملاً وتنتهي بقيامة أدونيس من بين الأموات. وتعمّ المحتفلين موجة عارمة من الفرح المتّسم بالجنون. وتقام احتفالات يشوبها الفحش، حيث تضحي النساء بعذريّتهن والرجال برجوليّتهم ويصبحون خدّاماً خصياناً في هيكل الإله.



الإله ملكارت

وفي صور، كان سكان المدينة يحيون عيد الإله ملكارت. وكان الاحتفال يبدأ بإحراق نموذج للإله رمزاً للتقادم والأضاحي التي كانت تقدّم للنار، والأسطورة تقول أن ملكارت مات حرقاً بعدما انتهى من بناء صور. وكان المشاركون بالاحتفال

وصف المؤرّخ والرّحالة السوري لوشيان الاحتفالات في «الآلهة السوريّة» كما يلي:

كل سنة عند إحياء ذكرى هذه المأساة يقرعون صدورهم وينوحون ويقومون بطقوس سرّية ورموز تعبّدية في جميع القرى والدساكر. وإذا ما فرغوا من البكاء والنواح قدّموا الذبائح لأدونيس على أنه إله قد مات. ثم لا يلبثون طويلاً أن يعيدوا ذكرى قيامته من الموت، كما يدّعون، رافعين شبهاً له مطوفين به. ثم أنهم يحلقون شعر رؤوسهم، تماماً كما يفعل المصريون عند موت إلههم أبيس. وإذا رفضت النساء أن يحلقن شعور رؤوسهم، عليهن أن يخضعن لقصاص وهو الوقوف النهار بكامله إلى جوانب الطرقات عارضات أجسادهن لمن يدفع ثمنها.

يحلقون رؤوسهم ويقيمون المناحات وتعيش المدينة في حداد إلى أن يُبعث ملكارت حيّاً وينتقل إلى السماء.

ودرج الصوريّون أيضاً على الاحتفال بعيد الإله اليوناني هرقل، فيلبس الناس الكتّان الأبيض ويحلق الكهنة رؤوسهم ويضرمون ناراً في المعبد، وهي بديل لتمثال الإله. وتبقى النار مشتعلة طيلة أيام الاحتفال.

الهياكل

بنى الفينيقيّون هياكلهم في أماكن بعيدة عن المدن. وخصوصاً على المرتفعات وغرسوا حولها الأشجار. وقد اختاروا الأماكن المرتفعة، كالجبال والتلال، لكي تكون مسكناً لائقاً لآلهتهم، ومكاناً يسمح بأداء الصلوات والابتهالات إلى الإله في أجواء خاشعة. فالهيكل يشكّل نقطة اتصال مباشر بين الناس والآلهة.

وقد عثر على أقدم الهياكل التي بناها الفينيقيّون في كلّ من أريحا ومجدو، وهي تعود إلى الألف الثالث ق.م. وفي كلّ من أوغاريت (رأس شمرا) وجبيل توجد هياكل أكثر حداثة.

وفي كلّ هيكل كان يقام مذبح تقرّب عليه التقادم، وعمود مقدّس يرمز إلى إله الهيكل، وبعض هذه العواميد يشبه المسلّة، ويرتفع عن الأرض بنحو عشرة أقدام. وبالقرب من العمود كان يقام نصب عمودي من الحجر، أو يستعاض عنه بشجرة ترمز إلى الخلود. وقد يكون اللبنانيون في العصور الحديثة قد توارثوا هذه العادة، حيث درجت العادة على أن تكون هناك شجرة صنوبر أو سنديان ضخمة في باحات الكنائس والأديرة.

ووجدت في بعض الهياكل أوانٍ وكؤوس مزيّنة برسوم، كان الكهنة يستخدمونها للزيت أو للخمر. وتشير الموجودات التي عُثر عليها في الهياكل إلى أن الفينيقيين كانوا يستخدمون البخور في احتفالاتهم الدينية.

وإن كان الفينيقيّون لم يصنعوا الأصنام التي تمثل آلهتهم، فإنهم قد صنعوا تماثيل صغيرة من البرونز أو الخشب أو الخزف، تمثّل الإله بعل وهو قابض على الصاعقة بيده. ومثّلت التماثيل أيضاً آلهة أخرى. أما الإلهات فقد ظهرن بشكل

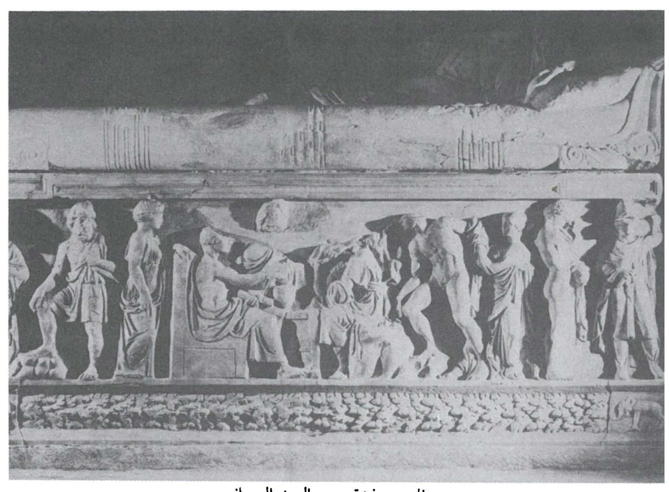
نساء عاريات، وبعض التماثيل يُظهر الإلهة وقد وضعت يديها على ثدييها دليلاً على دورها في منح الغذاء. وهذه التماثيل كانت تحفظ في البيوت لكي يتبارك بها العابد ويسعى إلى التقرّب منها وطلب رضاها في كلّ وقت.

وفي غرف معيّنة سفليّة من الهيكل، كان الكهنة يمارسون العرافة ويقدّمون المشورة إلى كلّ سائل في أيّ أمر يجهله، وخصوصاً إذا كان يتعلق بالمستقبل. ولم يكن باستطاعة الناس دخول الهيكل إلاّ بعد غسل الأقدام. فالنظافة الجسديّة شرط للتمكّن من أداء الصلاة.

أما الاحتفالات الدينيّة فكان أبرزها رتبتان: الأولى تقدّم لأنثى الآلهة وتُسمّى «النضح»، حيث ينضح الكهنة أمام آلهتهم الخمر والزيت والحليب. وتسمّى الرتبة الثانية «التضحية» وتقدّم للإله الذكر. وكانت التضحية تشمل ذبائح مختلفة تتنوّع بحسب مقام الإله. ومن الذبائح الفدّان، العجل، الغزال، الكبش، والخروف. وأحياناً، تقتصر التقدمة على أنواع مختلفة من الحبوب.

وكان الكهنة ينيرون الهيكل بشكل متواصل بشعلة يوقدها كاهن محلوق الرأس.

الحياة بعد الموت



ناووس فينيقي من العهد الروماني

في البداية، لم يكترث الفينيقيّون لهذه المسألة البعيدة عن متناول العقل والإدراك. وكانوا يتطلّعون إلى مسألة الثواب والعقاب على أنها أمر يتقرّر خلال الحياة التي يعيشها الإنسان في هذا العالم، وبناءً على سلوكه الاجتماعي، وتصرّفاته حيال من يحيط به، ومقدار التزامه بواجباته الدينيّة تجاه الآلهة.

فالإنسان الذي يتمتّع بصحة جيدة وبرفاه ماديّ وبكثرة الأبناء هو من الأشخاص الذين حظيوا برضى الآلهة ونال منها ما ناله من خيرات مكافأة له على



درع فينيقي يحمل رسم الإله المصري حورس يؤكد تأثير المصرين على ديانة الفينيقيين

الطريق الصحيح الذي يسلكه في حياته.

أما الإنسان الذي حرم هذه الخيرات في حياته الأرضيّة، فكان يعتبر ذلك عقاباً له لأنه لم يقم بواجباته الدينيّة كما يجب، أو لأنه تخلّى عنها كلّياً.

وقد يكون أنه بعدما تعاطى الفينيقيون مع جيرانهم المصريين واطّلعوا على معتقداتهم الدينية، بالإضافة إلى علاقاتهم مع العبرانيين، أنهم أصبحوا ينظرون إلى مسألة الحياة الثانية نظرة مختلفة تماماً.

فالأواني التي وُجدت في قبور الفينيقيين، من صحون وجرار ومصابيح وغيرها، تدلّ على أن هذا الشعب كان يعتقد بحياة معيّنة يعيشها الإنسان بعد موته، وقد تكون شبيهة بحياته الأرضيّة. فكانت أدوات الزينة تدفن مع النساء والأسلحة مع الرجال.

وفي حياته الجديدة، تبقى روح الإنسان على صلة بالجسد الذي فارقته. ولهذا السبب، اهتم الفينيقيون بتحنيط الجسد مقتبسين ذلك عن المصريين الذين كانوا بارعين في هذا المجال. كذلك، اهتمّوا ببناء المقابر التي جعلوها في أماكن عالية وأحاطوها بمظاهر الاحترام، باعتبارها «بيوت الراحة» أو «بيوت الأبديّة». وحرصوا أيضاً على حمايتها من عبث اللصوص، فكانوا يعمّقون حفرها في الأرض، أو يضعون النواويس في آبار عميقة أو في كهوف تستعصي على السارقين.

وأحياناً، كانت النقوش تزيّن نواويس الملوك والكبار من الفينيقيين، كناووس الملك أحيرام الذي وُجدت في مدفنه كتابة جاء فيها ما معناه: «بنى هذا المدفن إيتو بعل لأبيه أحيرام ملك جبيل بيتاً للأبديّة. فأيّ ملك أو حاكم يدخل جبيل ويكشف هذا المدفن يفقد عرشه وصولجانه. ومن يجرؤ على إزالة هذه الكتابة يكون مصيره الهلاك في الجحيم».

المسيحيّة في فينيقيا



الطفل يسوع بين ذراعي أمه مريم

عرفت فينيقيا المسيح للمرّة الأولى عندما وطئت قدماه أرض صور وباركتها في عرس قانا. ويذكر القديسان مرقس ولوقا في إنجيليهما أن السيّد المسيح قدم إلى صيدا وصور حيث بشرّ الجموع التي توافدت لرؤيته وشفى العديد من أمراضهم. وفي هذا الإطار أيضاً، يوضح الإنجيليّان متى ومرقس أن امرأة كنعانيّة تضرّعت إلى المسيح أثناء تجواله في «نواحي صور وصيدا» أن يشفي ابنتها المريضة والتي تعاني من الجنون فشفاها. وفي المكان الذي حدثت فيه الأعجوبة، بنيت في فترة لاحقة كنيسة ظلّت قائمة لقرون عديدة.

وبعد موت المسيح واستشهاد القديس إسطفانوس، أول الشهداء المسيحيين، توزّع رسله في جميع الأنحاء للتبشير بدين المحبة وملكوت السماوات، وجاء بعضهم إلى فينيقيا حيث وجدوا تجاوباً من سكانها. وكانت صور أوّل مدينة نشأت فيها جالية مسيحيّة. وهذا الأمر يذكره القديس بولس في إحدى رسائله حين قال إنه عرّج على صور حيث وجد فيها كنيسة. كذلك وجد كنيسة مماثلة أثناء حلوله في صيدا.

وعلى رغم الاضطهاد الروماني للكنيسة وللمسيحيين الذين تعرّضوا لأنواع شتى من القهر والتعذيب والقتل، نمت الكنيسة في فينيقيا. وأثناء القرن الثاني للميلاد، كانت الجالية المسيحية في صور قد أصبحت كبيرة وقويّة، فأقيم فيها كرسي لمطران تبعه بعد فترة من الزمن أربعة عشرة مركزاً أسقفيّاً. وأول المطارنة الذين يرد اسمهم في المراجع التاريخية هو كاسيوس. ومن المطارنة البارزين في صور المطران مارينوس الذي اعتبره البعض من أهم أساقفة الشرق. وأثناء القرن الثالث، تهدّمت كنيسة صور بسبب الاضطهاد الروماني الذي تعرّض له مسيحيّو المدينة. وكان من أبرز شهداء المسيحيّة في تلك المرحلة أوريغون، وهو أحد آباء الكنيسة وأحد رؤساء مدرسة الاسكندريّة التي كانت تعلّم مبادىء الدين المسيحي. وقد توفي بنتيجة السجن والتعذيب. وظلّ تأثيره في رجال الكنيسة الشرقيّة على مدى أكثر من نصف قرن.

رمز المسيحيين الأول

وبعدما أعيد بناء كنيسة صور مجدّداً، نقلت رفات أوريغون إليها ودفنت وراء المذبح.

ومع مطلع القرن الرابع، صدر أمر عن الامبراطور الروماني ديوكليسان باضطهاد المسيحيين وهدم كنائسهم، فهدمت كنيسة صور مرّة أخرى. إلاّ أن المطران باولينوس أعاد بناءها مرّة أخرى وجعلها أكبر من السابق. وأثناء هذا الاضطهاد، استشهد العديد من المسيحيين لرفضهم التخلّي عن إيمانهم، ومنهم الأسقف تيرانيوس الذي أُلقي في البحر وهو مكبّل اليدين والرجلين. وفي مرحلة لاحقة، أصبح باولينوس أسقفاً لأبرشيّة أنطاكية.

وفي العام ٣٢٥، عقد في صور مجمع مسكوني، ونشأ فيه خلاف بين مذهبين يمثلان نظرتين مختلفتين إلى طبيعة المسيح الإلهيّة. وانتهى المجمع إلى عزل مطران الاسكندرية آنذاك أثناسيوس بعد اتهامه بالهرطقة.

وفي تلك الفترة، أصبحت مدينة صيدا مقرّاً أسقفيّاً. وقد حضر أسقفها ثيودوروس مجمع صور سنة ٣٢٥ الذي انتهى إلى وضع قانون الإيمان المسمّى «الإيمان النيقاوي».

وكان لصور الفضل في انتقال المسيحيّة إلى القارة الافريقيّة، فبعد مصر، نشر الراهب الصوري فرومنتيوس الدين المسيحي في الحبشة وأصبح كبير أساقفتها، وحتى اليوم، يحتفل الأحباش المسيحيّون بذكراه في عيد القدّيس فريمونا.

وبعد صور وصيدا، واصلت المسيحيّة توسّعها باتجاه المدن الفينيقيّة الشماليّة، وذلك على رغم الاضطهاد الذي مارسه قياصرة روما ضد المسيحيين في مختلف أنحاء الأمبراطوريّة. وأصبحت بيروت مركزاً أسقفيّاً واستشهد فيها الكثيرون من الذين اعتنقوا المسيحيّة بسبب تمسّكهم بدينهم. ومن أبرز شهداء بيروت بامفيلوس وأبفيانوس، وهما كانا وثنيّين قبل تنصّرهما. والشهيد الأبرز الذي جعلت منه حياته وإيمانه قدّيساً هو جورجيوس، أو جرجس.

أساقفة صور

تعاقب على الكرسي الأسقفي في صور كلّ من: كاسيوس، مارينوس، تيرانيوس، باولينوس، زينون، باولوس، فيتاليوس، أورانيوس، زينون الثاني، فرنتيوس، سيروس، برونسيانوس، إيرنيوس، فوتيوس، دوروتيوس، يوحنا كوروناتس، إبيفانيوس وأويزبيوس.

وفي عهد الأسقف فوتيوس، تمّ ضمّ أبرشيّات طرسوس، وعرقا، وطرابلس، والبترون، وجبيل إلى أبرشيّة صور خلال مجمع خلقيدونيا سنة ٤٥١.

كان القديس جورجيوس (كما تتحدّث عنه أسطورة منتشرة بين العامة ومتوارثة منذ القدم، ومثلما تبرزه الرسوم التي تمثّله) يعيش في مدينة بيروت، وقد استطاع يوماً قتل التنين الذي كان يطلّ من وقت لآخر عند خليج المدينة (والمعروف حاليّاً باسم خليج مار جرجس) ليلتهم فتاة من بنات المدينة، ثم يعود إلى مياه الخليج، وبقتله التنين، أنقذ القديس الفارس ابنة ملك المدينة التي كان من المقرر أن تكون طعاماً للتنين في ذلك اليوم. وقد كرّم الملك جورجيوس بأن أنشأ له كنيسة في المدينة دعيت باسمه. ويذكر بعض الرحّالة أن لمار جرجس الفضل في تنصّر مدينة بيروت وبعض المناطق الأخرى.

ومع انتشار المسيحيّة واعتلاء بعض الفينيقيين عرش الامبراطوريّة، بدأ الأباطرة الرومان يظهرون بعض التسامح تجاه المسيحيين، كالامبراطور اسكندر سفيروس الذي جعل في معبده الخاص تماثيل للمسيح وبعض الأنبياء والفلاسفة. وخلال النصف الأوّل من القرن الرابع الميلادي، أعلن الامبراطور قسطنطين المسيحيّة ديناً للدولة الجديدة التي جعل عاصمتها مدينة القسطنطينيّة. وهذا الأمر ساعد على انتشار أوسع للمسيحيّة في كلّ أرجاء الدولة، بما فيها المدن الفينيقيّة. وأصبحت بعلبك مقرّاً أسقفيّاً جديداً، ولعب أساقفتها دوراً بارزاً

في نشر المبادىء المسيحيّة.

ثمّ تنصّرت مدينة أرواد البحريّة بعدما أحرق أهلها الأصنام التي كانوا يقيمونها في معابدهم، وهُدم معبد أفقا، وسجّلت المسيحيّة انتصارها على كل الآلهة الزائفة التي عبدتها المدن الفينيقيّة.

الفصل الثاني

الأبجديّة

قد لا يكون الفينيقيّون أوّل شعب استعمل نظاماً كتابياً للتعبير عن أفكاره وللتعاطي في شؤون حياتية واجتماعيّة وثقافيّة وتجاريّة مختلفة. إلاّ أنهم بالفعل أوّل من استعمل حروفاً هجائية في الكتابة بالمعنى الحقيقي للكلمة. وقبل ذلك، كانوا يعتمدون الكتابة المسمارية.

فقبلهم بقرون عديدة، استخدمت شعوب بلاد ما بين النهرين كتابة عرفت بالمسماريّة ابتكرها السومريّون، وطوّرها الأكاديّون. وكانت هذه الكتابة ترتكز على رسوم وأشكال مختلفة تطبع على الطين بآلة شبيهة بالمسمار (من هنا تسميتها بالمسماريّة). لكنها لم تحمل اسم ابجديّة لأنها كانت تضمّ مئات الرموز التي تجعل انتشارها صعباً من الناحية العمليّة.

وقبل الفينيقيين أيضاً، عُرف المصريّون باستخدامهم الكتابة المعروفة بالهيروغليفيّة. وكانت تعتمد على آلاف الرسوم والأشكال وتعتمد التصوير أساساً في التعبير. وهذا الأمر جعل منها كتابة معقدّة ومن تعلّمها غير متاح سوى لفئات قليلة من الشعب.

ويشير المؤرّخ اليوناني هيرودوتس إلى أن فضل اختراع الأبجديّة الفينيقية يعود إلى الصوري قدموس الذي نشر اختراعه في المدن التي حلّ فيها أثناء أسفاره في بلاد اليونان بحثاً عن شقيقته المفقودة أوروبا. وأبجديّة قدموس كانت تقتصر على ثمانية عشر حرفاً، وقد زاد عليها أربعة أحرف الإغريقي بالاميدوس لتصبح اثنين وعشرين حرفاً.

وهذا الاختراع الذي يعتبر من أهم إنجازات الحضارة الفينيقيّة قد يكون ارتكز على كتابات الشعوب الأخرى التي سبقته (وخصوصاً الكتابة الهيروغليفية بعد تطويرها على أيدي المصريين)، إلا أنه خرج نهائيّاً من دائرة التعبير بالرسوم والأشكال، لتصبح هذه الأبجديّة تعبيراً عن عدد النبرات الصوتيّة التي تتألف منها

اللغة التي يتكلّم بها الناس.

والحرف الأوّل في الأبجديّة هو «ألف» ويعني الثور بالفينيقيّة. وصورة رأس الثور تدلّ على هذا الحرف. والحرف الثاني «ب» يرمز إلى البيت، ويليه الحرف «ج» وهو يرمز إلى الجمل، والحرف «ميم» يرمز إلى الماء باللغة الفينيقيّة.

ويشير بعض المؤرخين إلى أن ترتيب الأحرف الأبجديّة وضعه عمّال فينيقيّون كانوا يعملون في صحراء سيناء مع المصريين. وقد تبنّاه الفينيقيون وزادوا عليه بعض الأحرف ليصبح عددها ٢٢ حرفاً.

وينسب البعض الآخر من المؤرخين الأبجديّة إلى الجبيليّن الذين كانوا يكتبون بخط أفقيّ من اليمين إلى اليسار. وكانوا يحفرون كتاباتهم على ألواح من الآجر والطين ثم تشوى في النار لكي تصبح صلبة.

دور الأبجديّة

ساهمت الأبجديّة الفينيقيّة في فتح آفاق جديدة أمام أصحابها. فعلى الصعيد الداخلي، تطوّرت الكتابة وأصبح التعليم واكتساب الثقافة أكثر سهولة، فزالت شيئاً فشيئاً الامتيازات التي كان يحظى بها الكتبة لأن التعلّم أصبح في متناول الجميع. وفي مجال التجارة، أصبحت المعاملات أقلّ تعقيداً. وبعدما علّم الفينيقيّون أبجديتهم للشعوب المجاورة، صار في الإمكان قيام تبادل فكري وثقافي أكبر أهميّة وفعاليّة.

لكن خضوع فينيقيا للاحتلالات المتعاقبة، قلّص من انتشار أبجدّيتها لحساب الإغريق فالرومان من بعدهم. ولم تلبث هذه الأبجدية أن تعرّضت لتعديلات متلاحقة من قبل عدد من الشعوب التي تعاقبت على السيطرة على بلاد الفينيقيين، ففقدت هويّتها الأساسيّة.

أقدم الكتابات

إن أقدم الكتابات بالأبجدية الفينيقيّة عُثر عليها في مدينة جبيل وهي محفورة

على حجر كلسيّ وتضمّنت كلمات واضحة المعنى، ومن الآثار الأخرى ناووس الملك الجبيلي أحيرام والذي يعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر ق.م. وهو يحمل على غطائه الأحرف الأبجدية الفينيقيّة. وقد عُثر عليه سنة ١٩٢٣.

لغة الفينيقيين

تعتبر اللغة الفينيقيّة، إلى جانب اللغة العبرانية، فرعاً من اللغة الكنعانيّة التي هي أيضاً فرع من فروع اللغات الساميّة. والتقارب بين الفينيقيّة والعبرانية واضح في العديد من المفردات والألفاظ، والتوراة (العهد القديم) خير دليل على ذلك.

وبما أن اللغة الفينيقيّة هي كالعربيّة ذات حروف ساكنة، فإن لفظ كلمة ما بالطريقة الصحيحة يبقى لغزاً لم يتوصّل العلماء والباحثون إلى حلّه، على رغم أنهم حلّوا رموز قواعد هذه اللغة، مستندين في ذلك إلى التقارب بينها وبين اللغة العربيّة التي دخلتها ألفاظ ومفردات كثيرة من اللغة الفينيقيّة وأصبحت في صلبها بعد انقراض هذه الأخيرة مع الزمن وبسبب الغزوات التي شهدها لبنان على مرّ العصور.

ولا يزال أثر اللغة الفينيقية بارزاً أيضاً في أسماء عدد من القرى اللبنانية، مثل كفرشيما ـ كفرذبيان ـ كفريّا، وغيرها. وكلمة «كفر» بالفينيقيّة تعني القرية بالعربيّة. والأثر الفينيقي واضح في أسماء بعض القرى الأخرى مثل بعلبك ـ بيت مري ـ قبرشمون وغيرها.

الفينيقية	أوغاريت	اليونانية	اللاتينية	العربية
𐤀	𐎀	Α	A	أ
𐤁	𐎁	Β	B	ب
𐤂	𐎂	Γ	C G	ج
𐤃	𐎄	Δ	D	د
𐤄	𐎅	Ε	E	هـ
𐤅	𐎆	Ϝ	F V	و
𐤆	𐎇	Ζ	---	ز
𐤉	𐎊	Ι	I	ي
𐤊	𐎋	Κ	---	ك
𐤋	𐎍	Λ	L	ل
𐤌	𐎎	Μ	M	م
𐤍	𐎐	Ν	N	ن
𐤕	𐎚	Τ	T	ت

الفصل الثالث

الأدب والأساطير

الأدب

لم تقتصر إنجازات الفينيقيين في حقل الكلمة على الأبجديّة فقط، وإنما شملت أيضاً حقل الأدب والشعر. إلاّ أن الزمان محا معظم آثارهم في هذا المجال، ولم يصلنا منها سوى بعض الأساطير المشوّهة التي تمّ اكتشافها في مدينة رأس شمرا (أوغاريت)، وهي تعرف باسم «ملاحم وأساطير من أوغاريت».

وهذه الملاحم اكتشفت سنة ١٩٢٩ في المدينة التي تنتمي حاليّاً إلى الأراضي السوريّة، وهي تقع بالقرب من مدينة اللاذقيّة. وتمّ ذلك بعد حفريّات قامت بها فرقة فرنسيّة وأسفرت عن العثور على عدد من الألواح المصنوعة من الخزف المشويّ على النار. وهي تضمّ على صفحاتها ملاحم وأساطير مختلفة ذات ارتباط وثيق بالمعتقدات الدينية والصراع بين بعض الآلهة الفينيقيّة. وبسبب التلف الذي أصاب بعض هذه الألواح، فإن القصص المكتوبة بالحرف المسماري جاءت مشوّهة بعدما فقدت العديد من عناصرها الأساسيّة. ويُرجّح أن تدوين هذه الأعمال قد تمّ نحو القرن الرابع عشر قبل الميلاد. أما تأليف النصوص فيعود إلى زمن أبعد من هذا التاريخ.

ويؤكّد علماء الآثار الذين أجروا دراسة في النصوص والكتابة التي نصّت بها، أن الكتابة هي بابليّة ـ أشوريّة، إذ هي تعتمد على الخط المسماري. وبنتيجة الأبحاث، توصّلوا إلى حلّ رموز هذه النصوص، وأصبح في الإمكان ترجمتها إلى أيّ لغة حديثة.

تضمّ نصوص أوغاريت الشعريّة خمس ملاحم وأساطير، هي: ملحمة البعل وعناة (وهي الأهم بين الآثار الخمسة)، أسطورة أقهات بن دنيال، أسطورة كارت ملك صيدون، مولد السّحر والغسق، الأخيلة والأشباح. أما الآثار النثريّة فتشمل أبحاثاً علميّة مختلفة:

ملحمة البعل وعناة

* تروي ملحمة البعل وعناة قصة صراع يبدأ بين إله البحر والمياه «يم» وإله الجبال والعواصف والصواعق «بعل». فهذا الأخير كان يرفض أن يكون لإله البحر أيّ سلطة على اليابسة. ونتج من هذا الصراع قتال عنيف بين الاثنين. وانتصر البعل على خصمه وكاد يقضي عليه لولا تدخل إلهة الحب عشتروت التي منعته من قتل «يم»، فردّه البعل إلى أعماق البحر وأصبح سيّداً لا منازع له، وكانت أخته «عناة» إلى جانبه تساعده في القضاء على أعدائه الذين لم يبق منهم سوى إله قويّ عنيد هو «موت» إله الموت والجحيم. وعندما طلب البعل منه أن يعترف بسيادته التامة على الأرض، تظاهر «موت» بالموافقة على الأمر ودعا البعل إلى مأدبة في عالم الأموات، ساعياً إلى إهلاكه، لأن من يعبر إلى عالم الموت ويأكل من طعامه لا يعود أبداً إلى وجه الأرض. وقبل البعل دعوة «موت» على رغم تحذيرات عناة التي راحت تبحث عن أخيها وتمكّنت بمساعدة الشمس من استعادته من عالم الأموات.

أسطورة أقهات بن دانيال

* أسطورة أقهات تروي قصة قاضٍ عادل يدعى دانيال، وكانت له ابنة وحيدة، لكنه كان يريد صبيّاً يحمل اسمه. وبعد صلوات وذبائح عديدة قدّمها إلى الآلهة، وعده البعل خيراً. وبعد فترة، ولد لدانيال صبي سمّاه أقهات. وذات يوم، حلّ إله البناء «كاشر ـ وخاسس» ضيفاً على دانيال، وكان بحوزته قوس وسهام للصيد يبدو أنه كان يحملها إلى الإلهة عناة. وحصل أقهات على القوس والسهام. وفيما كان يصطاد، إلتقته عناة وطالبته بما لها عنده فرفض التخليّ عنه. وحاولت استرضاءه بأيّ وسيلة، لكنه أهانها فغضبت ثم توجّهت إلى أبي الآلهة إيل شاكية تصرّف أقهات. ولم تقف عند هذا الحدّ، بل استخدمت رجلاً شبه إله فحوّلته إلى نسر وطلبت إليه أن يضرب أقهات ويستعيد القوس. لكن ضربة هذا كانت قاتلة، وبعدما حصل على القوس سقطت في البحر واختفت. أما أقهات فقد مات. وحزنت عناة على فقدانها للقوس وعلى موت أقهات ووعدت ببعثه حيّاً. وبعد

سنوات من المناحة وتقدمة الذبائح، طلبت ابنة دانيال، وكانت تدعى فوغة، من والدها أن يسمح لها بأن تأخذ الثأر لأخيها. وراحت تفتّش عن الرجل شبه الإله، وكان يدعى يطفان. وعندما وجدته، أخذت تسقيه الخمرة حتى سكر فاعترف متباهياً بقتل أقهات. فغضبت فوغة...

عند هذا الحدّ تتوقف الأسطورة لأنه لم يتمّ العثور على الألواح المكمّلة لها.

أسطورة كارت ملك صيدون

* في أسطورة كارت ملك صيدون حكاية ملك عادل أصاب بلاده وباء فقضى على الكثيرين من أهلها، ومات أخوته جميعاً وهربت زوجته، وكان من دون وريث لعرشه واسمه، ولكثرة تضرّعه إلى الآلهة أشفق عليه إيل، وأمره بأن يجهّز جيشاً كبيراً لغزو مدينة أدوم. وهناك سيجد له عروساً تدعى حوريّة، وهي ابنة الملك فابل وجمالها يضاهي جمال عناة وعشتروت.

وقبل البدء بحملته العسكريّة، زار كارت معبد أشيرة ونذر لها هدية من الذهب والفضة إذا ما حصل على حوريّة زوجة له. وضرب حصاراً على أدوم، وعندما عرض عليه الملك فابل الصلح، أصرّ على أن تكون حورية له. ورغم معارضة شعب فابل، تمّ زفاف كارت وحوريّة. وخلال سنوات، رزقا بعدد من الأطفال. لكن كارت نسي نذره للإلهة أشيرة فقرّرت الانتقام منه. فمرض ملك صيدون، ثم شفي بعد فترة من الزمن لأن الإله إيل أشفق عليه. وعندما عاد لمزاولة عمله كملك، دخل عليه ابنه «يَصَبْ» وطالبه بالتخلّي عن الحكم بسبب مرضه. فغضب كارت وراح يلعن ابنه...

عند هذا الحدّ، تتوقّف الأسطورة لأنه لم يعثر على الألواح المكمّلة لها.

مولد السّحر والغسق

* مولد السّحر والغسق هو عمل شعري في جزأين: في الجزء الأول دعوة للآلهة لحضور احتفال في الهيكل لأبي الآلهة إيل لمناسبة تجديد قواه التناسليّة. ويتضمّن الاحتفال عرضاً غنائياً وراقصاً يدعو إلى إكثار حليب الثدي. ويتقدّم

العرض فتاتان، ربما هما الإلهتان أشيرة وعناة، فهما مرضعتا الآلهة.

وفي الجزء الثاني نرى الإله إيل يملأ دلوه ماء. فإذا بفتاتين كانتا تراقبانه تتحرّشان به بعدما أعجبتا بقوته على رغم تقدّمه في السنّ. وبعد تبادل الكلام بين الثلاثة، يضاجع إيل الفتاتين فتحملان منه وتلدان صبيّين، أحدهما السّحر والآخر الغسق. ويمسخ إيل ولديه ويرفعهما إلى السماء بنجمين. ثم يكثر إيل نسله من المرأتين حتى يملأ الأرض. ويروح نسله يجوب الأرض بحثاً عن الطعام حتى يجدوا فلاحاً فيأكلوا من طعامه ويلتهموه هو أيضاً. . .

عند هذا الحد، تتوقف القصة من دون أن تصل إلى نهاية واضحة.

الأخيلة والأشباح

* الأخيلة والأشباح تبدأ بدعوة من الإله إيل إلى الرفائيم (قوم من الجبابرة العمالقة كانوا من سكان بلاد كنعان) للحضور إلى الهيكل بسرعة. وفي الهيكل يقيم لهم وليمة كبيرة، وأثناءها يعلمهم بأن الإله بعل سيتوّج ملكاً وسلطاناً.

وتنتقل القصة إلى مشهد آخر تقود فيه الإلهة عناة فتى مجهول الهويّة إلى داخل الهيكل حيث تنتظره وليمة فاخرة، وتغادر عناة المكان فيما يستمرّ الاحتفال حتى اليوم السادس. وعند هذا الحدّ تتوقّف القصة من دون نهاية واضحة.

* * *

إن لهذه النصوص الشعريّة فوائد عديدة بالنسبة إلى الباحثين في مختلف نواحي الحياة عند الفينيقيين، فهي تلقي أضواء قويّة على معتقدات هؤلاء القوم الدينيّة والاجتماعية، إلى جانب كونها تحفاً فنية رائعة تبرز براعة الفينيقيين في هذا المجال وما لهم من تأثير على الشعوب التي عاصرتهم، وخصوصاً العبرانيين.

وإلى جانب النثر والشعر، برز الفينيقيّون في الفلسفة، فكان منهم زينون الذي أسّس المدرسة الفلسفيّة الرواقيّة، وترك عدداً من المؤلفات، أهمها «المبادىء الجمهوريّة»، وبرز في الفلسفة أيضاً بيوتس من صيدون وزينون الصيدوني وديودورس الصوري. وفي التأريخ برز فيلون الجبيلي.

مقتطفات من ملاحم أوغاريت

ملحمة البعل وعناة

من السماء صرخت به عشتروت: العار للظافر البعل!

الخزي لراكب السّحب! إن الأمير «يم» أسير لدينا

كأسير لنا القاضي نهر. وما كادت تخرج الكلمة من فمها والعبارة من شفتيها حتى شعر الظافر البعل بالعار، وبالخزي راكب السّحب. أجاب:

لقد مات «يم» فليملك البعل. ها إن الظافر البعل

يتحرّق للسؤدد، وراكب السّحب يتحرّق للفوز بالملك.

أجاب «يم»: إن «يم» ميت. فليملك البعل. ها إن البعل الظافر يتحرّق للسؤدد...

* * *

(الإله موت يعلن أنه قتل البعل):

إنني كنت أتجوّل، وأبحث في كل جبل،

حتى في قلب الأرض، في كلّ هضبة،

في جوف الحقول، فثارت شهوتي للثأر

من بين الناس، من جماهير الأرض.

ثم إني وصلت إلى مواطن الأرض الجميلة

إلى المراعي الجميلة، إلى حقل ساحل الممات

فلقيت الظافر البعل

وجعلت منه حملاً في فمي

جديّاً في شدقي، ابتلعته.

إن نيرّ الآلهة، الشمس، أرسل شعاعه محرقاً

غير أنه وهن، منهوك القوى فهو في قبضة «موت» ابن الآلهة.

* * *

(عناة تستعين بالشمس):

خرجت البتول عناة وتوجّهت

إلى عند نيّر الآلهة، الشمس

ورفعت صوتها ونادت:

إن رسالة ثور ـ إيل أبيك هي:

لقد تشقّقت أثلام الحقول أيتها الشمس

لقد أهمل البعل الأثلام المحروقة!

أين الظافر البعل؟

أين الأمير سيّد الأرض؟

أجاب نيّر الآلهة، الشمس:

حقل خمر، ينبوع في خابيتك

الليلة أصعد إلى عشيرتك

وأفتّش عن الظافر البعل.

أجابت البتول عناة:

أنّى تذهبين أيتها الشمس

وأنّى تتوجهين يحرسك إيل...

أسطورة كارت ملك الصيدونييّن

يا كارت، يا سيّدنا، لقد تهدّم

يا كارت مسكن

الزوجة التي استقامتها تفوق

استقامة النساء المحظيّات، التي برّها يفوق

برّ المرأة المشتراة بمهر. ثم تبعتها

ثأر المحظيّة التي كانت له أم بنين

وأما الثالثة فقد ماتت بعد أن بلغت العمر الطويل

وأما الزوجة الرابعة فماتت ذبولاً

والخامسة قبضها رشف

وأما السادسة فإن البحر غيّبها

وأما السابعة فوقعت ضحية سلاح.

فأجاب كارت: لقد تهدّم كثيراً

الحصن، مسكنها.

وبموتهنّ أُبيدت ذرّيتي

وبهلاك مجموعهنّ، إرثي.

فدخل غرفته باكياً

مردّداً الكلام الذي سمعه وعينه تدمع،

تتساقط أدمعه

كمثاقيل فضة إلى الأرض...

مولد السّحر والغسق

إنّني أدعو الآلهة الصالحة

والوسيمة، أبناء الملوك أو السماء

ليعطوا مجداً للعليّ

في البرّية، في الهضاب، ليوضع تاج

على رؤوسهم، ليوضع على هاماتهم.

هيّا كلوا من الخبز، واشربوا من الخمر المختمرة.

ليكن سلام لك أيّها الملك، سلام أيتها الملكة والشيوخ والمردّدون...

أسطورة أقهات بن دانيال

تقدّم البعل مشفقاً على بؤس

دانيال الرجل الرفائي، تنّهد الفتى البطل

الرجل الهرنمي إذ أن ليس له ابن

كما لأخيه، وذريّة كما لسائر أبناء عشيرته

مؤتزراً يولم للآلهة،

يقدّم شراباً لبني القدس

لتباركنّه يا أبي ثور - إيل

لتقوّينّه يا خالق الخلائق.

فيكون له ابن في بيته، وذريّة في وسط

هيكله، فيقيم الابن نصباً لآلهة أبيه في الحرم المقدّس

ويحرس شعبه في الأرض، ويجعل التراب يُخرج عطره ويحمي مزاره، ويردّ عنه إهانة الذي يحتقره ويهزم الذين يقلقون نومه.

ويأخذ بيده إذا سكر، ويدعوه إلى بيته

إذا ارتوى خمراً، ويأكل نصيبه من الوليمة المقدّسة في بيت البعل

وحصته في بيت إيل، ويحدل سطح بيته يوم

يُوحل، ويغسل ثيابه يوم تتلوّث...

الـرفـائيــم

ها هو ابنك. . .

هيكلك، بنيّ قد بني، ها إن عناة تأخذ

بيدك أيها الصغير، تقبّل شفتيك، هناك

أخوة لك، كتف إلى كتف يخدمون إيل

بسرعة. هناك أناس يمجّدون اسم إيل

يمجدّون ويباركون اسمه. هناك أبطال:

رفأ ـ بعل النشيط القوي، خادم البعل،

وخادم عناة. هناك يُحتفى بـ «حيلي»

الأمير الملك المعظّم. عندما أسرعت

عناة إلى الصيد، عندما راحت تصطاد طير السماء بشبكة، نُحرت الثيران،

كذلك الخراف، صرعت إلى الأرض والحملان المسمّنة والعجول الحوليّة

حملان صغيرة وجداء تبدو كفضّة

للمشاهدين، زيت ذهبيّ للمشاهدين، كحقل

مضمّخ بالعطر كانت المائدة، بالقعال (زهر العنب) مزيّنة. . .

(ملاحم وأساطير من أوغاريت ـ أنيس فريحة ـ)

الأساطير

ليست الأساطير التي كانت منتشرة ومتداولة ومتناقلة في المجتمعات الفينيقيّة بغريبة عن نصوص أوغاريت الشعريّة التي وردت في الباب السابق. فمعظم هذه الأساطير ذات منطلق ديني وأبطالها من الآلهة أو من الملوك وأبنائهم. وهي تلخص الصراع بين الخير والشرّ وبين الحياة والموت.

أسطورة أدونيس وعشتروت

هي الأسطورة الأكثر شعبيّة في المدن الفينيقيّة التي كان مسرحها المنطقة اللبنانية المعروفة حاليّاً بنهر إبراهيم، وبطلاها إله الحب وإلهة الجمال.

في هذه المنطقة جمع الحب بين الإلهين الشابين: أدونيس الفتى ذو الجمال الباهر والصياد البارع الذي يرتاد أحراج المنطقة صعوداً حتى أفقا لكي يصطاد الطيور والوحوش الضارية، فيثير الوله والشوق في قلوب الحسان، وحتى الإلهات منهن، وفي مقدّمتهنّ عشتروت التي ينبع السّحر والجمال من عينيها ووجهها.

علق قلب عشتروت بهوى أدونيس فسعت وراءه في رحلات الصيد، وما كاد يراها حتى أصابه ما أصابها من الوله والهوى. وباركت الغابات والطيور والسماء هذا الحب.

وكانت عشتروت تعي جيّداً المخاطر التي تعترض حبيبها في رحلات الصيد التي كان يقوم بها، وتعرّضه الدائم للوحوش المفترسة التي لا تقيم وزناً للجمال. فراحت تكرّر رجاءها إليه المرّة تلو الأخرى لكي يكفّ عن هذه المغامرات، لكنه لم يكن يرتدع مظهراً دائماً اعتداده بقوّته.

أثار هذا الحب رفيقات عشتروت فأشعل غيرتهنّ وأقسمن على الانتقام منها. وفي يوم من الأيام، وبينما كان أدونيس في رحلة صيد، سلّطت عليه إحدى الإلهات وحشاً مفترساً في منطقة قريبة من نهر إبراهيم، فهاجم الوحش أدونيس

ودارت بين الاثنين معركة ضارية انتهت بهزيمة الإله الشاب الذي تركه الوحش ملقى على الأرض يعاني سكرات الموت.



نقود فينيقية نقش عليها رسم عشتروت (١) وصخرتها المقدسة (٢) وهيكلها (٣).

وما كاد الخبر يصل إلى عشتروت حتى هرعت إلى حبيبها تعانقه وتبكيه، وهو يقترب نحو الموت من دون أن تفارقه البسمة، ولم يلبث أن فارق الحياة، فمسحت عشتروت زهرة قريبة بدمه فجرى في قلبها وكانت زهور شقائق النعمان على حدّ ما جاء في الأسطورة.

وظلّت عشتروت تبكي أدونيس ودموعها تملأ قلب الأرض حتى تفجّرت الينابيع من جوف مغارة أفقا، وراحت المياه تجري بين الصخور وفي المنحدرات وهي تردّد صدى نحيب عشتروت على إلهها القتيل. وعندما جاء أهل جبيل إلى المكان وجدوا الدموع تتدفّق نهراً والأزهار تنضح دماً، فحزنوا وآمنوا وراحوا يقيمون الاحتفالات والأعياد تخليداً لذكرى أدونيس. وأصبحت هذه الاحتفالات تقليداً يتجدّد سنوياً عند بداية فصل الربيع.

أما عشتروت فراحت تبحث عن حبيبها، ولم تجده إلاّ بعد أن نزلت إلى العالم السفلي، إلى عالم الأموات، فأنقذته وأعادته إلى الحياة.

ومنذ ذلك الحين، صارت مياه النهر تصطبغ كلّ عام، وفي الموعد نفسه باللون الأحمر القاني.

ترمز هذه الأسطورة إلى موت الطبيعة في فصل الخريف وانبعاثها في الربيع التالي، وما أدونيس سوى تمثيل لروح الطبيعة أو النبات. وما الحمرة التي تصبغ نهر إبراهيم سوى الأتربة الحمراء التي تجرفها السيول إلى النهر بعد ذوبان الثلوج.

أسطورة عربا (أوروبا) وقدموس

تقول الأسطورة أنه كان لأحد الملوك الفينيقيين، ويدعى آجنور، ابنة رائعة الجمال تدعى عربا. وفي أحد الأيام، وبينما كانت تتنزه على شاطىء البحر مع رفيقاتها، رآها كبير الآلهة عند الإغريق زفس فسحره

نقد صوري يمثل قدموس وهو يعلّم الأبجدية للإغريق

جمالها وأحبها. ولكي يحصل عليها، حوّل نفسه إلى ثور ليستطيع الاقتراب منها. وبسرعة البرق، خطفها على ظهره وأسرع بها نحو البحر، ولم يلبثا أن غابا عن الأنظار.

عادت رفيقات عربا إلى القصر ليخبرن الملك بما حدث، فحزن حزناً شديداً وأرسل أبناءه الأربعة للبحث عنها في كلّ مكان.

أما زفس فقد نزل في جزيرة كريت، واستعاد شكله البشري الطبيعي وتزوّج بعربا في احتفال كبير أقامه على شرفها، وأنجب منها ثلاثة أولاد.

وبدأ أخوة عربا بالبحث عنها، فتوجه فونكس إلى قرطاجة عبر شمال أفريقيا. ولم يلبث أن عاد إلى بلاده بعد وفاة أبيه الذي قضى حزناً على ابنته.

وتوجّه كيليكس إلى المناطق الواقعة شمال وشرق فينيقيا والتي حملت اسمه لاحقاً، لكنه لم يعثر على أيّ أثر لشقيقته.

أما تاسوس فقد اتّجه نحو أولمبيا في اليونان وبنى مستعمرة فينيقيّة في جزيرة حملت اسمه وراح يعمل مع أتباعه في استخراج الذهب. لكن الكنز الذي كان يبحث عنه لم يجد له أيّ أثر.

والأخ الرابع قدموس أبحر أوّلاً إلى جزيرة رودس، ثمّ مرّ بعدد من الجزر المجاورة، ولم يعثر على عربا. وبعد بحث استغرق فترة طويلة، يئس قدموس من إيجاد شقيقته، فأنشأ حيث كان يحلّ مدينة سمّاها طيبة. وتخليداً لذكرى أخته، أطلق اسمها على كلّ البلاد المعروفة اليوم تحت اسم «أوروبا».

ترمز هذه الأسطورة إلى الانتشار الفينيقي في أوروبا، وخصوصاً في اليونان، وإلى المستعمرات العديدة التي أسّسوها في حوض المتوسط، وإلى الحضارة التي نشروها حيث حلّوا.

أسطورة لايوس وأوديب

كان لايوس ملكاً على طيبة، وهو من أحفاد قدموس، وفي يوم من الأيام تزوّج من امرأة تدعى جوكاست، فحظر عليه الإله فايوس إنجاب أولاد من زوجته، وإلاّ فإن ابنه سيقتله ويتزوّج من أمه. لكن جوكاست حملت من زوجها، وعندما ولدت ابنها، أعطاه أبوه لأحد العبيد وطلب منه أن يرميه بعيداً. وأشفق العبد على الطفل فأعطاه إلى راعٍ من كورنثيا، فسلّمه هذا بدوره إلى مليكه بوليب. فربّاه

ودعاه أوديب.

ولمّا شبّ أوديب سمع شائعة تقول أنه ليس ابن الملك، فقصد عرّافة ليستعلم عن الحقيقة. وفي الطريق التقى بأبيه الحقيقي لايوس الذي كان يبحث عن ابنه، ولم يعرف أحدهما الآخر. وتشاجرا فطعن أوديب لايوس وقتله.

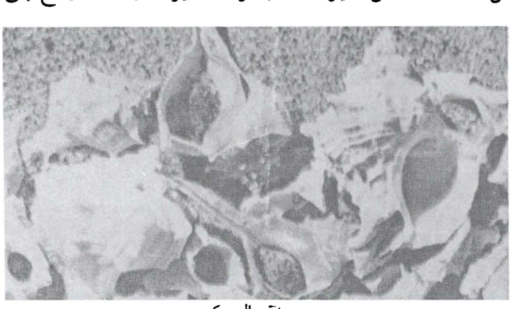
وترك أوديب كورنثيا وانتقل إلى طيبة حيث قضى على الوحش الذي كان يهدّد أهلها والقادمين إليها. وإكراماً له، نصّبته طيبة ملكاً عليها، فتزوج من جوكاست، من دون أن يدري من هي، وأنجب منها ولدين وابنتين.

وراح أوديب يفتّش عن قاتل ملك طيبة، وانتهى الأمر به إلى اكتشاف الحقيقة: إنه هو من قتل لايوس وإن لايوس هو أبوه وزوجته هي أمه!

صعقت الحقيقة أوديب وجوكاست التي انتحرت. وفقأ أوديب عينيه وراح يطوف المدن يستعطي بعدما تخلّى عن الملك.

أسطورة الأرجوان

تقول الأسطورة أنه في أحد الأيام خرج أحد ملوك صور في نزهة على شاطىء البحر، ترافقه زوجته مع كلب صغير لا يبرحها أبداً. وأثناء النزهة، كان الكلب يعدو من مكان إلى آخر ويقفز بين الصخور ملتقطاً أصدافاً مختلفة تنتشر على الشاطىء ويأكل ما يلتقطه من حيوانات البحر الصغيرة. وعندما رجع إلى الملكة رأت صباغاً أحمر يسيل من فمه، فتوجّهت مع الملك إلى حيث كان الكلب يلعب، لكنهما لم يجدا شيئاً سوى ما اعتادا



صدف الموركس

رؤيته على رمال الشاطىء، من أصداف وحيوانات بحريّة صغيرة.

وعندما عرف أهل صور بما جرى، راحوا يتسابقون لرؤية الكلب، وانبرى الصيادون يفتشون عن السبب حتى اكتشفوا السرّ في حيوان بحري صغير يعيش في صدفة. وهو حيوان لافقاريّ يدعى «موركس» يسيل منه سائل أحمر اللون، وصار يستخدم لاحقاً في صباغ الأقمشة الفاخرة.

أسطورة نهر الكلب

إن نهر الكلب الذي يفصل بين قضاءي المتن وكسروان في لبنان كان الأقدمون يدعونه نهر الذئب. ولهذه التسمية رواية أو أسطورة تعود إلى زمن الفينيقيين:

تقول الأسطورة أن ذئباً كان يحرس مصبّ النهر في شكل مستمرّ، فلا يدع أحداً يقترب من المكان. وإذا أحسّ بوجود غريب أو عدوّ راح يعوي ليعلم سكان المنطقة بأن شرّاً ما يتربّص بهم، فيتأهبون للدفاع عن أرضهم، ويقاتلون حتى

النقش على صخور نهر الكلب

تركت الشعوب التي تعاقبت على غزو لبنان تسعة عشر نقشاً على صخور نهر الكلب، والنقش الأخير كان لوحة خلّدت ذكرى جلاء الجيش الفرنسي عن لبنان سنة ١٩٤٦ وتحقيق استقلاله الكامل.

والنقوش التسعة عشر تقاسمتها الشعوب على الشكل التالي: ـ نقش واحد لكلّ من البابليين والرومان والعرب.

ـ نقشان لكلّ من المصريين والإغريق والفرنسيين.

ـ أربعة نقوش للانكليز.

ـ ستة نقوش للأشوريين.

يدحروا العدو ويردّوه عن بلادهم، أو ينهزموا ويغزو العدو ديارهم. وقد ترك العديد من الشعوب التي غزت لبنان على مرّ العصور بصمات لهم ما تزال منقوشة على صخور نهر الكلب، كالمصريين في زمن الفرعون رعمسيس الثاني، والفرنسيين والانكليز خلال الحرب العالمية الأولى وعهد الانتداب.

إن هذه الأسطورة ترمز إلى تمسّك اللبنانيين منذ القدم بأرضهم وسعيهم المتفاني للحفاظ على حرّيتها واستقلالها.

الفصل الرابع

الاقتصاد الفينيقي

الزارعة

كغيرهم من الشعوب التي عاصرتهم، اهتمّ الفينيفيّون بالزراعة لكونها عنصراً أساسياً يعتمد عليه مجتمعهم في الحياة الاقتصادية والغذائيّة. ومهما تكن وارداتهم الزراعية قليلة، فإنها كانت تشكّل عنصراً لا بأس به اعتمدوا عليه في تجارتهم مع الشعوب المجاورة.

والزراعة عند الفينيقيين ترتكز على أسس ثلاثة: الانتاج الزراعي، الغابات وصيد الأسماك وتربية الحيوانات الداجنة:

١ ـ الإنتاج الزراعي: إن الزراعة تشكّل عملاً دائماً للإنسان الفينيقي. ولذلك، فهو يعتمد على قوته البدنيّة في زراعة الأرض وحراثتها، قبل استقدام المحراث من بلاد ما بين النهرين وبعده. فطبيعة الأرض الجبليّة الوعرة وانتشار الصخور بكثرة يزيدان من صعوبة هذه المهنة. وفي غالب الأحيان، كان الإنتاج ضئيلاً، على رغم أن الفينيقيين لم يتركوا ساحة صالحة للزراعة إلاّ واستغلّوها لكي يحصلوا على أكبر كميّة يمكن أن تنتجها أرضهم. وسهروا على عدم انجراف التربة خلال مواسم الأمطار.

إهتمّ الفينيقيّون بزراعة الخضار على أنواعها والحبوب (وخصوصاً القمح) الزيتون والكرمة والفاكهة.

إستخدم الفينيقيون أدوات مختلفة في الزراعة، كالمحراث الخشبي الذي استبدل لاحقاً بمحراث معدني. واستعملوا معاول برونزية ومناجل معدنية لحصاد القمح. كما استخدموا مذراة خشبية ودرسوا القمح تحت النورج، وطحنوا الحبوب بالجاروش. وكانوا يخزنون محصولهم من الحبوب في الأكوار لتكون مؤونة فصل الشتاء.

٢ ـ الغابات: كان لبنان قبل خمسة آلاف سنة غابة خضراء وكانت تكسو جباله أشجار الأرز والسنديان والشربين والصنوبر وغيرها. أما المناطق التي تحيط به فكانت شبه صحراوية. وهذا الأمر دفع بالشعوب المحيطة بلبنان، من قريبة وبعيدة، إلى التطلّع نحو غاباته الغنية بالأخشاب، وخصوصاً ما هو ثمين منها كالأرز. فمنهم من غزا لبنان وقطع من أشجاره ما أراد، ومنهم من جاء لبنان شارياً. فراح الفينيقيون يقطعون أشجار غاباتهم ليبيعوها ويحققوا أرباحاً مهمّة. وكان فراعنة مصر أوّل من اشتروا الأخشاب من مدينة جبيل. كما طلب ملك العبرانيين سليمان الحكيم الأخشاب من ملك صور أحيرام لبناء الهيكل في أورشليم.

أما شعوب بلاد ما بين النهرين وفارس فقد قطعوا الأخشاب من غابات لبنان بعدما سيطروا عليه وبنوا قصورهم الفخمة.

وإلى جانب إفادة الفينيقيين من بيع الأخشاب، كانوا يستخدمونها في بناء سفنهم ومراكبهم التي مخروا بها البحر ووصلوا إلى شواطىء بعيدة جدّاً عن شواطئهم.

٣ ـ تربية الدواجن وصيد الأسماك: إهتمّ الفينيقيّون بتربية الحيوانات الداجنة للاستفادة من حليبها وجلدها ولحمها وقرونها، واستخدموا الثيران والحمير في حراثة الأرض. وكانوا صيادي أسماك بارعين، خصوصاً أنهم يعيشون على شاطىء البحر الذي يؤمّن لهم مصدر رزق مهمّاً.

الصناعة

إختلف الفينيقيّون عن الشعوب التي جاءت قبلهم والتي عاصرتهم، وعن بعض الشعوب التي جاءت بعدهم في نقطة حضاريّة مهمّة: إن تلك الشعوب كانت تطلب المجد والقوة والازدهار عن طريق السيف والغزو والاحتلال وسفك الدماء والتخريب وطمس حضارات الغير.

أما الفينيقيون فسلكوا طريقاً آخر إلى المجد والشهرة والنجاح عبر سلوكهم سبيل التعاطي الحضاري مع الشعوب الأخرى من خلال الصناعة والتجارة. وهذه وسيلة لا تتوخى الغنى والرخاء الاقتصادي عن طريق إفقار الغير وتدمير اقتصاده وتجويعه، وإنما تهدف إلى التبادل الاقتصادي الذي يصل بالشعوب إلى نوع من التكامل والشعور بالاكتفاء.

وبرع الفينيقيون في صناعاتهم المختلفة، ولا سيّما الصوريين، حتى قال فيهم المؤرخ البريطاني رولنسن G. Rawlinson إنهم تفوّقوا على شعوب العالم أجمع في ما ابتكرته عقولهم وصنعته أيديهم، وأثبتوا أن الشهرة لا تؤخذ بالسيف فقط، ولكن بالتفوّق في الصناعة والتجارة أيضاً.

ولم يكتفِ الفينيقيّون بالابتكار، بل كانوا يتكيّفون مع ما تضعه أيدي جيرانهم فيقتبسونه ويطوّرونه. ومكانة الصنّاع الفينيقيين جعلتهم يتبوأون مركزاً وسطاً في المجتمع الفينيقي، وكانوا يرثون مهنة آبائهم وينضوون في نقابات تنظّم أعمالهم وتحفظ حقوقهم.

الصباغ الأرجواني

في زمن الفينيقيين، كانت تنتشر على طول الشاطىء الممتدّ من أواسط

فلسطين جنوباً حتى بعض سواحل اليونان في أوروبا كمّيات كبيرة من أصداف «الموركس». وهذه الأصداف تحوي حيوانات صغيرة تفرز سائلاً أصفر اللون يستحيل إلى بنفسجي بعد تعرّضه لأشعّة الشمس.

أما الفترة التي اكتشف فيها هذا الصباغ فهي غير واضحة تماماً، والبعض يزعم أن وسيلة اكتشافه تمّت استناداً إلى أسطورة الأرجوان التي ورد ذكرها في فصل سابق من هذا الكتاب.

راج استخدام سائل الموركس في صباغ الأقمشة في كل من صور وصيدون وبيروت. ولعلّ الأولى تفوّقت على جارتيها في هذه الصناعة.

وكانت صناعة الصباغ الأرجواني تتمّ في مصانع خاصة خارج المدن الثلاث وبعيداً عن النطاق السكني، لأن الرائحة التي كانت تنبعث من الأصداف كانت كريهة. وقد أقام الفينيقيّون ستاراً كثيفاً من الكتمان على الطريقة التي كانوا يعدّون فيها الصباغ، وجعلوا الأمر سرّاً، لكي يتخلّصوا من المنافسة التي كان بعض المدن في اليونان يمارسها في مجال صباغ الأقمشة. ولقد تمكّنوا من ذلك وتفوّقوا بوضوح على منافسيهم الإغريق. فلقد استخدموا حوامض خاصّة ساعدتهم في تحضير ألوان أرجوانية مختلفة وفي تنويع إنتاجهم.

كانت أصداف الموركس تلتقط بكميّات كبيرة خلال فصل الربيع، ثم تسحب منها عصارتها التي تتراوح ألوانها بين الأبيض والمائل إلى الاصفرار. ثم تمزج مع بعض الملح وتترك لأيام. وبعد ذلك، تنقل إلى أوعية ساخنة حتى درجة غليان الماء. وفي غضون عشرة أيام، يتغيّر لون السائل فيصبح بنفسجيّاً مائلاً إلى الأحمر، وتتدنّى كميّته بنسبة كبيرة.

وبما أن الصدفة الواحدة من الحجم الكبير لا تعطي سوى قطرات معدودة من السائل، فإن عمليّة تجميعه كانت تتطلّب جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً، بالإضافة إلى كميّات كبيرة من الأصداف. ولهذا السبب، اعتبرت هذه العملية بمثابة إبادة شبه تامّة لحيوان الموركس، بحيث لم تبق منه اليوم سوى مجمّعات كبيرة للأصداف بالقرب من مدينة صيدا.

إستخدم الفينيقيّون الصباغ الأرجواني في صباغ الأقمشة الفاخرة، كالحرير الصيني، وكانت تباع بأثمان مرتفعة. لذلك، كان ارتداء الأرجوان وقفاً على الملك وكبار الكهنة والأشراف والأغنياء. وكان مجرّد ارتدائه يعبّر عن المكانة الرفيعة لصاحبه. واقترن اسمه بالكبار حتى صار يُسمّى لباس الملوك.

نقل الفينيقيون إنجازهم هذا إلى مستعمراتهم كافة وباعوا الأرجوان من الشعوب الأخرى بأثمان باهظة لا يقوى عليها سوى أصحاب الثروات الطائلة.

في الحفريّات الأخيرة التي جرت في وسط مدينة بيروت، عثر في الجهة الجنوبية ـ الشرقيّة من أوتيل الهيلتون على مصنع للصباغ الأرجواني وكميّات هائلة من صدف الموركس. كما وجدت مجموعة أحواض صغيرة للصباغ، إضافة إلى بئر عميق لإتلاف بقايا الموركس ذات الرائحة الكريهة.

ولكي يبقى الأرجوان رداء الملوك المميّز، جرى تحريم ارتدائه على جميع الذين لا ينتمون إلى العائلة المالكة، أو الطبقة الحاكمة.

وفي عهد الرومان، حصر الامبراطور جوستنيان حقّ ارتداء الأرجوان بحاشيته ورجال الدين فقط. إلاّ أن بعض القياصرة الآخرين، مثل أغسطس قيصر، حرّموا ارتداء الأرجوان بسبب ثمنه المرتفع، وذلك تخفيفاً من الأعباء المادّية على الشعب.

وإلى جانب الصباغ الأرجواني، استعمل الفينيقيون في تلوين الأقمشة أنواعاً مختلفة من الأعشاب البحريّة وصباغاً يعرف بدم التنين وبعض أنواع القصب. وهذه المواد كانوا يأتون بها من جزر مختلفة منتشرة في حوض البحر المتوسّط.

صناعة الزجاج

من المرجّح، على رغم التناقض بين المؤرخين أن الفينيقيين ليسوا مخترعي

الزجاج، وإنما اقتبسوا صناعته عن المصريين الذين تشتهر شواطئهم بنوعيّة رمالها الممتازة. لكن شهرة الفينيقيين في هذا المجال هي في أنهم جعلوه شفافاً بعدما كان صفيقاً. وأخرجوه بألوان عديدة. وبرعوا في صناعته حتى أصبح بين أيديهم فنّاً قائماً بذاته، تبرع مخيّلتهم في ترجمته أشكالاً فنية مختلفة، يجمع ما بينها الذوق والإحساس المرهف والموهبة الخلاّقة. وساعدهم في تطوير هذه الصناعة نقاوة الرمل الذي فرشه البحر على طول الشاطىء الفينيقي.

يروي المؤرّخ بليني أن الفينيقيين اكتشفوا صناعة الزجاج عن طريق الصدفة. فذات يوم، رست سفينة تجار فينيقيين على شاطىء عكّا للاستراحة، وسفينتهم محمّلة بمواد لصنع الصابون. ولتحضير الطعام على النار، استعانوا ببعض أحجار النطرون لعدم توفّر الحجارة على الشاطىء.

وبفعل حرارة النار القوية، ذابت هذه الأحجار وامتزجت مع بعض الرمال وتحوّلت إلى مادّة زجاجيّة شفافة. ويعتبر بليني في روايته هذه أن ذلك كان أوّل عهد للفينيقيين بالزجاج.

أبرز من تفنّن في صنع الزجاج كانوا أبناء صيدون وصور الذين لوّنوا الزجاج بالأحمر والأزرق والأصفر، وغيرها من الألوان التي أكسبت مصنوعاتهم مزيداً من الرونق والجمال.

وبرز في صناعة الزجاج كلّ من أرتاس وجاسون اللذين بلغا بهذه الصناعة درجة الفن الراقي. وكانا يوقعان اسميهما على ما يصنعان.

في البداية، صنعت الأيدي الفينيقية القناني والكؤوس والقوارير الصغيرة، وألواح الزجاج الملوّنة وغير الملوّنة والتي كانت تستخدم في نوافذ المنازل وفي تزيين المعابد، فالكنائس بعد نشأة المسيحيّة.

ثم صنعوا الأواني المختلفة، أحجاماً وأشكالاً وزخرفة. كما صنعوا الأباريق والمرايا. وممّا يؤكّد براعتهم أنّهم بلغوا حدّ تطعيم الحلى، من خواتم وعقود

وأساور وغيرها، بحجارة
زجاجيّة ملوّنة أو بيضاء تشبه
بعض الأحجار الكريمة وتحلّ محلّها. وكانوا
يحفرونها لتتّخذ الشكل المطلوب. وبعض ما
صنعته الأيدي الفينيقية، وخصوصاً الصوريّة،
من التحف الزجاجيّة ما يزال محفوظاً في
بعض متاحف فرنسا وإيطاليا، وهو يؤكّد
على المستوى الرفيع الذي عرفته الصناعة
الفينيقيّة في هذا المجال.

ويروي المؤرّخ هيرودوتس أنه
حين زار معبد الإله ملكارت في
صور، رأى عمودين متشابهين
تماماً، أحدهما من الزمردّ
الخالص. وقد ظنَّ أن الآخر
هو أيضاً من الزمرّد، لكنه عرف
في النهاية أنه مصنوع من
الزجاج الملوّن بالأخضر، وفي
وسطه المثقوب مصباح مشتعل
يضيئه باستمرار.

وصناعة الزجاج اقتبسها عن الفينيقيين كلّ من
الإغريق والرومان، وعرفها بعدهم
الأوروبيون.

نموذج من صناعة الزجاج

صناعة الخزف

عرف الفينيقيون صناعة

الخزف كغيرهم من شعوب العالم القديم، ولكنهم كانوا أكثر براعة من سواهم. وقد بلغت هذه الصناعة أوجها في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد. فهم كانوا تجاراً، وتجارة الخزف تعود بأرباح وفيرة. لذلك، لم يهتمّوا كثيراً بالعنصر الفنيّ في إنتاج الخزف، بل حرصوا على إنتاج كميات كبيرة بأسعار شعبيّة لكي يغزوا الأسواق ويتخلّصوا من المنافسة التي كانوا يتعرّضون لها في هذا المجال.

وكان للدولاب فضل كبير في تطوّر صناعة الخزف لديهم، فهو قد ساعدهم في تحسين أشكال الأواني والأباريق التي كانوا يصنعونها وجعلها أكثر تناسقاً. وهذا الأمر مكّنهم من التغلّب على الصناعة المماثلة لجيرانهم والمصريين والقبرصيّن.

وبعد الآنية المختلفة، صنع الفينيقيون تماثيل خزفية الأحجام وباعوها في الأسواق. ثم صنعوا النواويس التي حفظت بعد مئات من السنين أوانٍ خزفية مختلفة كانت توضع مع الميت في ناووسه.

الصناعة المعدنيّة

إحتاج الفينيقيون إلى المعادن في صناعة الأسلحة والأواني المنزليّة والنقود والتماثيل وأدوات الزراعة والحلى وغيرها. فعالجوا المعادن التي كانت معروفة في زمنهم، كالنحاس والحديد والقصدير، وصنعوا البرونز عبر مزج النحاس بالقصدير، وعرفوا الفولاذ أيضاً. واستوردوا النحاس والقصدير من آسيا وأوروبا.

أما المعادن الثمينة، كالذهب والفضة، والتي لا وجود لها في أرضهم، فقد استقدموها عن طريق المقايضة مع الشعوب التي يتعاطون معها في التجارة.

ومن الآثار التي تركها الفينيقيّون في هذا المجال آنية نحاسية وبرونزيّة مختلفة وبعض الحلي والنقود الفضيّة. وهي تدلّ على المهارة التي تمتّع بها الفينيقيّون في صناعة المعادن.

صناعة السّفن

تطلّع الفينيقيّون دائماً ناحية البحر باعتباره طريق الاتصال الأفضل مع الشعوب الأخرى، خصوصاً أن حدودهم الداخلية الشرقيّة تقف فيها الجبال حواجز طبيعيّة

تعوق عمليّة السفر باتجاه الشرق والتواصل مع الشعوب التي تستوطن المناطق الداخليّة من العالم القديم.

وبما أن الجبال اللبنانية كانت تكسوها الغابات، فقد وجد الفينيقيّون فيها مصدراً لتأمين الأخشاب لصناعة السّفن. وطوّروا صناعتهم مع الوقت حتى تمكّنوا من بناء مراكب كبيرة.

في البداية، اقتصرت السفن على النوع المخصّص للتجارة. ولكن، بعد خضوع المدن الفينيقيّة لاحتلالات شعوب غازية متعاقبة، راح الفينيقيّون يصنعون المراكب الحربيّة بناء على طلب المحتلّين، كالفرس والمصريين وغيرهم. ولم يتوقفوا عند هذا الحدّ، بل عمدوا إلى تعليم هذه الصناعة لجيرانهم من الأصدقاء.

يذكر أن حيرام ملك صور بنى للملك سليمان أسطولاً بحرياً هو الأول الذي امتلكه العبرانيون. وكان يرسو في ميناء عزيون جابر، أو ميناء العقبة، على شواطىء البحر الأحمر. وكان هذا الأسطول بقيادة بحّارة من صور استفادوا منه بقيامهم برحلات عديدة حول شبه الجزيرة العربية والشاطىء الشرقي للقارة الأفريقيّة بحثاً عن سلع مختلفة، كالبخور والصندل والذهب والعاج.

كانت السفينة التجارية مرفوعة المقدّمة والمؤخرة، وفي المقدمة رأس حصان مصنوع من الخشب. وكان طول بعضها يصل إلى عشرين متراً، وهي تتحرّك بواسطة شراع كبير أو أكثر. ويدير السفينة ملاّح موقعه في المقدّمة. ويقوم صفّان من المجذّفين بدفع السفينة إلى الأمام، وكان وسط السفينة عريضاً لكي تتّسع لكميّة أكبر من البضائع. وقد ترك المصريّون رسوماً عديدة تمثل سفناً فينيقيّة، ويعود تاريخها إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد.

أما السفينة الحربيّة فكانت أطول من التجارية ومقدّمتها مصمّمة للتصادم مع سفينة أخرى، وهي تتّسع لنحو ثلاثين رجلاً وحمولة كبيرة.

وكانت السفن الفينيقيّة تتألف من طبقات عدّة قد تصل إلى ست. واستطاع الفينيقيون بناء أسطول بحريّ قويّ غدا محطّ أنظار الشعوب القريبة والبعيدة، حتى

أن الرومان اقتبسوا عن القرطاجيين طريقة بناء سفنهم الحربيّة، وخصوصاً الشراع. وأصبح الفينيقيّون بذلك أسياد البحر وأمراءه.

* * *

برع الفينيقيّون في صناعات أخرى مختلفة، فعرفوا الحياكة والغزل. وكان الصوف المادّة الأولى التي استخدموها في صناعة الملابس الشتويّة. وفي مرحلة متأخرة، استوردوا القطن من مصر بعدما كان أهلها قد جلبوه من الهند التي تعتبر موطنه الأصلي. وعرفوا الكتّان الذي كان معروفاً في مصر وسوريا.

أما الحرير فقد جيء به من الشرق الأقصى، وصنع الفينيقيّون من خيوطه الملبوسات الحريريّة التي صبغوها باللون الأرجواني، وباعوها بأسعار مرتفعة إلى الملوك والأمراء مرصّعة بالجواهر والفضّة.

وأجاد الفينيقيون أيضاً صناعة الأسلحة والمجوهرات والعطور التي كانوا يستخرجونها من زهور بلادهم.

وقد تميّز الفينيقيّون بإنتاج سلع ذات أوزان خفيفة، ساعين من خلال ذلك إلى سهولة نقلها وبيعها ومنافسة غيرهم في الأسواق الخارجيّة. ولهذه الغاية أيضاً، اعتمدوا على منتوجات زهيدة الثمن تستطيع أن تغزو الأسواق وتكون في متناول الجميع. لكنهم، وفي الوقت نفسه، لم يهملوا صناعة السلع الثمينة، كالتي تعتمد على الأقمشة الفاخرة وعلى المعادن الثمينة والأحجار الكريمة.

التجارة

. . . تاجرة الشعوب في جزر كثيرة، يا صور، إنك قلت: أنا كاملة الجمال. حدودك في قلب البحار وبانوك أكملوا جمالك. بسرو من سنير (جبل حرمون) بنوا لك كلّ ألواحك وأخذوا أرزة من لبنان ليصنعوا سارية عليك. صنعوا مقاذيفك من بلوط باشان ومتنك من عاج مرصّع في الشربين من جزر ركتّيم. الكتّان الناعم الموشّى من مصر كان شراعك ليكون راية لك. والبرفير البنفسجيّ والأرجوان من جزر أليشة كانا غطاءك. سكّان صيدون وأرواد كانوا قذافين لك وحكماؤك يا صور الذين فيك هم بحّارتك. شيوخ جِبْلَ (جبيل) وحكماؤك كانوا فيك جلافطة لصدوعك وجميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك لترويج بضائعك. . .

كانت ترشيش تتاجر معك لوفرة كلّ غنىً، فكانت تقايض سلعك بالفضة والحديد والقصدير والرصاص. ياوان (اليونان) كانت تتاجر معك، فتقايض بضائعك بالعبيد وآنية النحاس. . وكانت أرام تتاجر معك لوفرة مصنوعاتك، فكانت تقايض سلعك بالبهرمان والأرجوان والوشي والكتان والمرجان والياقوت. . . وكانت دمشق تتاجر معك لوفرة مصنوعاتك، لوفرة كلّ غنىً، وتزوّدك بخمر حلبون وبالصوف الأبيض. . وكان العرب وجميع رؤساء قيدار من زبائنك، فكانوا يتاجرون معك بالحملان والكباش والتيوس. وكان تجّار شبأ يتاجرون معك، فيقايضون سلعك بأفضل كلّ طيب وبكل حجر كريم وبالذهب. . .

لقد امتلأت وثقل حملك في قلب البحار. . .

ـ من سفر النبي حزقيال ـ

مارس الفينيقيّون التجارة وجعلوا منها مورد رزقهم الأوّل، لأن موارد الزراعة والصناعة لم تكن كافية لتأمين حاجات الشعب وتثبيت الركائز الاقتصادية لكلّ مدينة. وقد بدأوا تجارتهم مع الشعوب المجاورة والقريبة نسبيّاً من الساحل الفينيقي في مرحلة أولى. وبعدما تمكّنوا من البحر وبرعوا في الملاحة، وسّعوا نطاق تجارتهم لتشمل شعوباً بعيدة في أفريقيا وأوروبا.

وإلى جانب البحر، لم يهمل الفينيقيون الطرق البريّة، فاتّصلوا مع الشعوب المجاورة شمالاً وجنوباً وشرقاً وأقاموا معها علاقات تجارية نشطة.

التجارة البحريّة

إعتمد الفينيقيّون على التجارة البحريّة لأن البحر الواسع كان يفتح أمامهم الأبواب للوصول إلى بلاد عديدة وبعيدة وتبادل السلع المختلفة مع شعوبها، ولأن مجال التجارة البريّة كان ضيّقاً بالمقارنة مع البحر.

والتجارة الفينيقيّة كانت تعتمد على إنشاء الجاليات والمخازن على أراضي الدول والجزر التي تعاطوا معها التجارة لتموين الأسواق بالسلع التي قد تنفد بسبب الإقبال عليها، ولتلافي تعرّضها للمنافسة من البضائع الإغريقيّة. وقد تركّز اهتمام الفينيقيين على أسواق طرسوس وكيليكيا في آسيا الصغرى، وعلى جزيرة قبرص المجاورة للساحل الفينيقي. ثم انطلقوا نحو المناطق القريبة من السيطرة التجاريّة للإغريق، فغزوا أسواق جزيرتي رودس وكريت. ووصلت المراكب الفينيقيّة إلى بعض شواطىء البحر الأسود، لكن أية جاليات لم تستقرّ في تلك المنطقة.

وفي خطّ معاكس، اتجه الفينيقيّون نحو مصر في الجنوب. إلاّ أن مجال توسّعهم الضيّق هناك بسبب السيطرة المصرية على الأسواق، جعلهم يكتفون بإنشاء بعض المستودعات في ممفيس والتي وضعت تحت إشراف جالية فينيقيّة صوريّة لا بأس بعدد أفرادها. ويجب أن نذكر هنا أن التجارة البحريّة الفينيقية قامت في البداية على أكتاف الصوريّن.

وبعد فترة، وسّع الصوريون نطاق تجارتهم فوصلوا إلى الحوض الغربي

للمتوسط، لا سيّما بعد قيام مدينة قرطاجة، وتركوا المجال للصيدونيين لكي ينافسوا الإغريق في الحوض الشرقي.

في قرطاجة، انطلق الفينيقيّون نحو جزيرتي مالطة وصقليّة، وتوسّعوا على الساحل التونسي. وكانوا، حيث يصلون، ينشئون المرافىء. ثم وسّعوا تجارتهم فشملت جزر سردينيا والباليار. وبعدها، انتقلوا إلى إسبانيا وركّزوا جالية لهم في مدينة ترشيش التي كانوا هم مؤسسيها. ثم وصلوا إلى سواحل فرنسا الجنوبيّة. وبعد رحلتهم التي أوصلتهم إلى الجزر البريطانية وإيرلندا، أقاموا علاقات تجاريّة مع شعوب هذه المنطقة.

وبعد دورانهم حول أفريقيا أنشأ الفينيقيّون علاقات تجاريّة مع شعوب عدد من المناطق فيها، حيث يكثر الذهب والمزروعات غير المعروفة على الساحل الفينيقي وفي حوض المتوسط.

وقبل أن يتواجه القرطاجيون والرومان في الحروب البونية، كان التجار الفينيقيّون يبيعون سلعاً مختلفة في عدد من المدن الإيطالية.

التجارة البرّية

قبل تطلّعهم نحو البحر، وجّه الفينيقيّون أنظارهم باتجاه الشعوب والدول المحيطة بهم والتي تفصلهم عنها حدود برّية، لأن الوصول إليها والتفاعل معها في مختلف المجالات كانا أيسر نسبيّاً من مغامراتهم البحرية بغضّ النظر عن نجاحها. فاتّصلوا بالعبرانيين جنوباً وبشعوب بلاد ما بين النهرين شرقاً، وتمكّنوا من الوصول إلى الصين مروراً بالهند. وقد سلكوا نحو هذه الدول طرقات ساحليّة وداخليّة، أهمّها:

ـ طريق ساحلي نحو الجنوب يعبر المدن الفينيقيّة باتجاه ساحل فلسطين وصولاً حتى صحراء سيناء.

ـ طريق ساحلي شمالي يصل إلى كيليكيا وآسيا الصغرى. ومن هناك كانت القوافل تتابع طريقها نحو أرمينيا وجبال القوقاز.

ـ طريق داخلي يتبع مجرى نهر الليطاني نحو سهل البقاع وصولاً إلى دمشق.

ـ طريق داخلي يبدأ من أوغاريت ويتجّه نحو بعض المدن السورية الداخليّة، كحماة وحلب والرّها وغيرها، ويمتدّ حتى وادي نهر الفرات وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين.

ـ طريق داخلي يصل المدن الفينيقيّة بشبه الجزيرة العربيّة.

ومن بلاد ما بين النهرين، عبر الفينيقيون إلى بلاد فارس والهند، فالصين.

وبما أن القوافل البريّة كانت معرّضة دائماً في ذلك الزمان لهجمات اللصوص وقطّاع الطرق، فقد أقام الفينيقيون علاقات وديّة مع شعوب المناطق التي تعاطوا معها في التجارة، واستطاعوا إنشاء محطات تجارية أقامت فيها جاليات فينيقيّة. وهذا ما ساعد القوافل على درء خطر الهجمات عليها لدى مرورها في مناطق غير آهلة بالسكان.

يروي هيرودوتس أن الفينيقيين كانوا يعتمدون طريقة طريفة في التبادل التجاري مع شعوب أفريقيا. فهم كانوا ينزلون بضائعهم من السفن ويضعونها على الشاطىء، ثم يعودون إلى مراكبهم بعد أن يشعلوا النار ليعلموا الأفريقيين بقدومهم. عندئذٍ، يقترب هؤلاء من البضائع ويتفحصونها، فإذا وجدوها مناسبة لما يريدون، وضعوا كمية من الذهب إلى جانبها، وعادوا إلى حيث كانوا. ثم يقترب الفينيقيون مجدّداً من البضاعة، فإذا وجدوا أن الذهب كافٍ أخذوه ومضوا، وإلاّ تركوه وعادوا إلى سفنهم منتظرين كمية إضافية من الذهب.

ويشير هيرودوتس إلى أن هذه العملية كانت تتمّ بنزاهة ومن دون خداع من جانب أيٍّ من الطرفين...

السّلع التجاريّة

لم تكن الأراضي الفينيقيّة غنيّة بالحديد، وكانت تفتقر إلى معادن صناعيّة مهمّة، كالنحاس والقصدير والذهب والفضة، وهي معادن احتاجوا إليها في صناعاتهم المختلفة. إلاّ أن

أراضيهم كانت غنيّة جدّاً بالغابات التي كانت تنتج كميات كبيرة من الأخشاب.

هذا الغنى بالأخشاب، بالإضافة إلى شهرة الفينيقيين في صناعة الخمور والزيوت والصباغ الأرجواني، وبعض السّلع الفنية المختلفة، ساعدهم في ترسيخ أسس تجارة مع العديد من الشعوب أثمرت ازدهاراً ورخاءً اقتصاديّين عرفتهما المدن الفينيقيّة، وذلك بفضل المعاملة الصادقة التي امتاز بها التجار الفينيقيون وبفضل النوعيّة الممتازة التي أكسبت بضاعتهم شهرتها الواسعة في كلّ مكان كانت تعرض فيه للبيع. ولم يكتفوا بما كانت تنتجه أيديهم وأراضيهم، بل كانوا يعيدون بيع بعض السلع التي كانوا يشترونها من شعب معيّن إلى شعب آخر ويحقّقون أرباحاً مهمّة.

باع الفينيقيّون أخشاب الأرز والسنديان، وكان المصريون أبرز من اشترى الأخشاب وأدخلوها في أثاث منازلهم وفي زينة هياكلهم. وفي المقابل، أخذوا من المصريّين القطن والكتان والذهب والنحاس والحجارة الكريمة. كما أرسلوا أخشابهم إلى العبرانيين الذين بنوا بها هيكل أورشليم.

واستوردوا النحاس من قبرص بالإضافة إلى منتجات زراعيّة مختلفة كالكرمة والزيتون. وجاؤوا من سوريا بالمواشي واستفادوا من بيع لحومها وجلودها وصوفها. واشتروا الحبوب من فلسطين.

وتعامل الفينيقيّون في أفريقيا مع الحبشة والسودان، بالإضافة إلى مصر. فاستوردوا من الأولى الذهب والعاج والحجارة الكريمة وريش النعام وخشب الأبنوس؛ وجاؤوا بالأبنوس والعاج من السودان أيضاً.

وإلى إسبانيا، حملوا الزيت واستبدلوه بالذهب والفضة والحديد والقصدير والرصاص. واشتروا المعادن والخيول والحجارة الكريمة من أرمينيا وجبال القوقاز، وحملوا الأواني النحاسية إلى بريطانيا وإيرلندا واستبدلوها بالقصدير.

ووصل الفينيقيّون في تجارتهم إلى الهند التي حملوا منها سلعاً ثمينة كالحرير. ولم يوفّروا منافسيهم في مجال التجارة، أي الإغريق، فوصلوا بتجارتهم إلى بلادهم حيث باعوا واشتروا سلعاً مختلفة. وقد اقتبس الإغريق أسماء سلع عديدة عن الفينيقيين.

من المقايضة إلى البيع والشراء

قبل أن يتوصّل العالم القديم إلى سكّ النقود واستخدامها في العمليّات التجاريّة، كان الفينيقيّون كغيرهم من الشعوب يتعاملون بمبدأ المقايضة، فيحصلون مثلاً على المواد الغذائية والمعادن وغيرها في مقابل الأخشاب والقماش الأرجواني وغيرها. ثم اعتمدوا النقود بعد اختراعها ورواجها ممّا سهّل عليهم ممارسة مهنتهم التي برعوا فيها حتى عمّ الازدهار مختلف المدن الفينيقيّة ونعم أهاليها بالبحبوحة والغنى. ومع الغنى، ازدادت سفنهم وتوسّعت أساطيلهم، وخصوصاً الأسطول الصوري، ممّا جعل من صور زعيمة المدن الفينيقيّة و «مليكة البحار وتاجرة الأمم».



نقد صوري: الإله ملكارت على حصان البحر

هكذا غزت فينيقيا العالم تجارياً وحضارياً، إذ لم يكتف الفينيقيّون بالتبادل التجاري مع الشعوب، بل تجاوزوا ذلك إلى التفاعل الحضاري معها وجعلوا منه أساساً مهمّاً في تقدّم المجتمعات والشعوب القديمة اقتصاديّاً وإنسانيّاً وحضارياً.

الفصل الخامس

غزو البحار

لما كان الفينيقيون على سواحل بحر أريثرا أي الأوقيانوس الهندي حدثتهم أنفسهم باختراق عباب البحر طلباً للتجارة والتقدم. وبمرور الأيام صارت الملاحة فيهم عادة واكتسبوا من جيرانهم العرب أخلاقاً بحرية كانت من أوجه الشبه بينهم فأمسوا بعد حين يطوفون البحار ويجوبون الثغور، تارة كتجار ينقلون البضائع والأموال، وطوراً كقرصان ينزلون الويل والدمار ممن كان من غير أبناء جنسهم. على أنهم بعد انتقالهم من ثغور أريثرا إلى فينيقية أعجبهم البحر المتوسط لسكونه وهدوءه فازدادت فيهم الرغبة إلى السفر فيه واختراق عبابهِ والاستطلاع على ما وراءه فاصطنعوا السفن وسافرت السفينة الأولى من صيدا (قلت الأولى لأنها كانت أول سفينة عرفها العالم بعد فلك نوح) وكان لوفرة حظهم أن الثغور والجزر لا تبعد عن بعضها كثيراً ولذلك لم يكن للنوتية خوف من طول الأمد فكان البحر معلماً يرشدهم إلى تجشم الأسفار وما فتئوا يزدادون ويكثرون السفن والسفر حتى مهروا في الملاحة وسلك البحار.

تاريخ سورية - جرجي يني -

تعتبر السفينة من أهم الإنجازات التي حقّقتها الحضارات القديمة، وللفينيقيين اليد الطولى في ذلك، فهم كانوا مولعين بالبحر باعتباره وسيلة السفر الأسهل (بسبب وعورة جبال بلادهم) وباب الرزق الأهمّ الذي من خلاله يتصّلون بالشعوب المجاورة فيبيعون ويشترون، ويتركون جاليات لهم في أيّ مكان حلّوا به ويبنون المستعمرات.

وبما أن فينيقيا كانت غنيّة جدّاً بالأخشاب، فقد استطاع أهلها بناء الأساطيل التجارية والحربيّة لهم ولغيرهم. وساعدهم اضطلاعهم الواسع بالجغرافيا وعلم الفلك في أن يمخروا عباب البحر غير عابئين بالأهوال والمخاطر يواجههم بها نوّ

أو إعصار. وإذا كانوا لم يعرفوا البوصلة لتحديد اتجاههم، فإنهم كانوا يبحرون في الاتجاه المناسب مهتدين بالنجم القطبي الذي عرف في اليونان باسم «النجم الفينيقي». وعرفوا حقيقة المدّ والجزر وعلاقة القمر بهذه العمليّة، واستفادوا من ذلك في إبحارهم.

الرحلات

عندما بدأ الفينيقيّون بمغامراتهم البحريّة، لم يتجرأوا على الابتعاد كثيراً عن الشاطىء، وكانت رحلاتهم قصيرة وتقتصر على التنقّل بين مدينة وأخرى من الساحل الفينيقي حيث انتشرت المرافىء بمعدّل مرفأ لكلّ مدينة. وقد أكسبتهم هذه الرحلات خبرة لا بأس بها، فتخلّوا عن حذرهم وراحوا يتطلّعون نحو المدن البعيدة المنتشرة على شواطىء بعيدة يدفعهم حبّ المغامرة وسعيهم إلى توسيع نطاق تجارتهم.

وبدأت الرحلات قاصدة الجزر الأقرب إلى الساحل، فحطّ البحّارة رحالهم في جزيرة أرواد، ثم في قبرص ومالطة وكريت. وساعدهم الأرخبيل اليوناني فانتشروا في بعض جزره، وخصوصاً في جزيرة رودس.

وبعد اليونان، تحوّل الفينيقيّون جنوباً، فوصلوا إلى سواحل مصر، ومن بعدها إلى ليبيا. وتوالت الرحلات نحو الساحل الإفريقي الشمالي، فكانت هجرة أليسار، بنت صور، إلى تونس حيث بنت مدينة قرطاجة العظيمة. ومن قرطاجة، وصل الفينيقيّون إلى جزيرتي صقلية وسردينيا. وتطلّعوا شمالاً، فحلّوا في مناطق عديدة هي اليوم في فرنسا وإسبانيا وغيرهما.

وأصبح الفينيقيّون والبحر أصدقاء، فبدأوا ينظمون رحلات استكشافية حول العالم، مرّة بطلب من ملك ما غريب ولحسابه، ومرّة بمبادرة خاصة هدفها حبّ الاستطلاع والتعرّف إلى شعوب جديدة وفتح أسواق جديدة للمنتجات الفينيقيّة.

ومن أوائل الرحلات التي قاموا بها رحلة بطلب من الفرعون المصري «نخاو». ويقول المؤرخ هيرودوتس أن هذه الرحلة تمّت في مطلع القرن السادس قبل الميلاد، وقد غطّى نفقاتها الفرعون المصري. والانطلاقة كانت من على

شواطىء مصر المطلّة على البحر الأحمر (وهذا دليل على وجود قناة مائية تفصل بين مصر الافريقيّة وسيناء، وهي التي تقوم عليها اليوم قناة السويس) باتجاه جنوب الكرة الأرضيّة. ووصلت السفن إلى رأس الرجاء الصالح سابقة البرتغاليين إلى ذلك الموقع بمئات السنين.

وخلال الرحلة، توقّف الفينيقيّون أكثر من مرّة للاستراحة وللتزوّد بالمؤن. وتابعوا الإبحار في المحيط الأطلسي حتى وصلوا إلى مدخل البحر الأبيض المتوسط عند الموقع المعروف حالياً بجبل طارق والذي كان يعرف في زمنهم بأعمدة هرقل. ومن هناك، تابعت السفن طريقها شرقاً حتى وصلت إلى مصر.

ويروي هيرودوتس أنه أثناء تلك الرحلة، تعرّضت المراكب لعاصفة، فانفصلت إحداها عن الموكب وشردت نحو الغرب حتى وصلت إلى القارة الأميركيّة قبل أن يكتشفها كريستوف كولومبوس بنحو ألفي سنة. ورسا المركب على الشاطىء الشرقي للبرازيل. وقد استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات.

رحلة حنون

حنون بحّار قرطاجي، ورحلته تمّت بطلب من مجلس شيوخ قرطاجة وكانت تكراراً للرحلة السابقة حول أفريقيا، إلاّ أن وجهتها كانت معاكسة، فقد انطلقت من المدينة باتجاه الغرب، وعبرت السفن مضيق أعمدة هرقل واتّجهت جنوباً نحو رأس الرجاء الصالح. وكان الهدف تحقيق دورة كاملة حول القارة الأفريقيّة، إلاّ أن خضوع مصر للفرس جعل متعذراً على الرحلة أن تبلغ غايتها، فعاد حنون وبحّارته من حيث أتوا، وقدّم تقريراً إلى مجلس الشيوخ تضمّن تفاصيل الرحلة. لكنه بقي سرّياً ولم تتسرّب منه إلاّ معلومات ضئيلة في ذلك الزمان. وحفظ التقرير في قرطاجة، وقد اكتشفه أحد المؤرخين في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، علماً أن الرحلة تمّت خلال النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد، واستغرقت أكثر من ثلاث سنوات.

ويروي تقرير حنون مشاهداته أثناء الرحلة، فيتحدّث عن أحد الجبال البركانية

الذي شوهد في أفريقيا ووصف الحمم التي تتفجّر منه بـ«جداول نارية». ويشير إلى الرعب الذي تملّكه ورفاقه لدى رؤيتهم هذا المشهد والذي جعلهم يغادرون المكان بسرعة، وقد ظلّوا يشاهدون ألسنة النار ترتفع من الجبل خلال أربع ليالٍ. وذكر أن هذا الجبل كان يعرف آنذاك بـ«مركبة الآلهة».

* * *

في بداية القرن الرابع قبل الميلاد، نظّمت قرطاجة رحلة استكشافية ثانية بقيادة هميلكو، أو هملكون. وهذه الرحلة وصلت إلى الجزر البريطانية عبر مضيق جبل طارق واستغرقت نحو أربعة أشهر. وقد بنى الفينيقيون هيكلاً للإله ملكارت في مدينتين بريطانيّتين لا تزال آثارهما موجودة حتى اليوم.

ويبدو أن الفينيقيّن كانوا أوّل من اكتشف جزر الكناري بالإضافة إلى جزر الأسور وماديرا. وفي النصف الأول من القرن العشرين، تمّ اكتشاف كتابات فينيقيّة تؤكّد وجود مناجم فينيقيّة بالقرب من منطقة بلتيمور التابعة حاليّاً للولايات المتحدة الأميركيّة.



الفنون

تمثّل الفنون وجوهاً مختلفة من الحضارة الفينيقيّة. وهي انبثقت في شكل عام من الصناعة التي نقلها الفينيقيّون من طور السلعة التجارية الرخيصة التي استهدفت في مرحلة البداية كسب الأسواق ومنافسة البضاعة الإغريقيّة إلى طور العمل الفني الراقي. ولم تقتصر الفنون الفينيقيّة على الأشياء التي يمكن حملها ونقلها وبيعها في الأسواق، وإنما شملت أيضاً هندسة البناء والرقص والموسيقى وغيرها.

فن العمارة

إقتصر فنّ العمارة عند الفينيقيين على الهياكل والمقابر. دون غيرها من الأبنية السكنيّة. وبسبب تعرّض المدن الفينيقيّة على مرّ الأزمنة للدمار بفعل الزلازل أو المحتلّين، فإن ما وصلنا من الآثار العمرانيّة الفينيقيّة هو من الهياكل التي كانت تقام خارج المدن على أماكن مرتفعة وبعيدة عن الأحياء السكنيّة، بالإضافة إلى ما تمّ اكتشافه في بعض المدن الساحلية كصور، وما تمّ اكتشافه حديثاً تحت أنقاض مدينة بيروت التي تشهد حاليّاً مرحلة إعادة الإعمار. وقد زال معظم الآثار العمرانيّة الفينيقيّة التي نشأت في المدن بعد تعاقب العديد من الشعوب على احتلال البلاد، وخصوصاً أن بعضهم كان يهدم المباني ويستخدم حجارتها في أبنية مصمّمة بناء على أنماط خاصة غريبة عن النمط الفينيقي. فالرومان، على سبيل المثال، بنوا هياكل لهم في بيت مري وبعلبك على أنقاض معابد فينيقيّة كانت منشأة في هاتين المنطقتين.

ولا يجب أن ننسى أن شهرة الفينيقيين في هندسة البناء تخطّت حدود بلادهم إلى الدول المجاورة، حيث كان الاعتماد كبيراً على الآثار التي تركوها خارج أرضهم للتعرّف على فنّهم المعماري.

كيف بنى الفينيقيون هياكلهم؟

تميّزت الهياكل الفينيقيّة، بعكس المنازل، بضخامتها، ممّا فرض بناءها على أساسات صلبة في الصخر. واستخدمت الحجارة ذات الأحجام الكبيرة بعد صقلها لتسهيل رفعها مداميك عالية، بالإضافة إلى أخشاب الغابات وخصوصاً الأرز.

وقبل أن يتأثروا بالتصاميم التي كان المصريون يعتمدونها، كان الفينيقيّون يركّزون على البساطة، فالهيكل كان عبارة عن غرفة مستطيلة ومنفذها باب واسع،

ومرتفع. وأحياناً، كانوا يقيمون طابقاً سفليّاً يضمّ غرفاً مخصّصة للكهنة والمنجّمين.

ولأن الهياكل كانت تقام عادة في أماكن مرتفعة ومطلّة على المدن، فإن تجهيزها بأدراج كان أمراً ضرورياً لتسهيل وصول المتعبدين للصلاة والمشاركة في الاحتفالات الدينيّة. ومعبد الإله أشمون خير مثال على ذلك.

وكان الهيكل يسقف بألواح الخشب، وفي وسطه تقام بركة تعلو في وسطها صخرة، وعليها يرتفع بيت الإله الذي يشكل ركناً أساسيّاً من أركان الهيكل الثلاثة، إلى جانب المذبح وعرش الإله. وكان تمثال الإله يوضع في بيت مخصّص له يسمّى «بيت الإله»، فيما يخصّص المذبح للتقادم والأضاحي، من حيوانية وبشريّة. أما عرش الإله فكانت تنقش عليه صورة الإله وأمامه يقف الملك خاشعاً.

ومن النماذج المهمّة على فن العمارة عند الفينيقيين هيكل الملك سليمان الذي ورد ذكره في العديد من أسفار الكتاب المقدّس ـ العهد القديم ـ، وفيه ذكر لأخشاب الأرز التي كانت تستورد من لبنان لبناء الهيكل، ولدور البنائين الفينيقيين في إنجاز هذا العمل الذي غدا موضع إعجاب الجميع ممّن شاهدوه وجالوا في أرجائه.

ويروي سفر الملوك الأول بإسهاب قصّة بناء الهيكل الذي استغرق سبع سنوات. ونورد هذه التفاصيل كما جاءت في السفر المذكور مع بعض التصرّف والاقتضاب:

«أرسل سليمان إلى حيرام (ملك صور) يقول: «قد علمت أن داود أبي لم يقدر أن يبني بيتاً لاسم الربّ إلهه بسبب الحروب التي أحاطت به... والآن فقد أراحني الرب إلهي من كلّ الجهات... وها أنذا قد نويت أن أبني بيتاً لاسم الربّ إلهي... والآن فمر بأن يقطع لي أرز من لبنان، وخدّامي يكونون من خدّامك، وأجرة خدّامك أؤدّيها إليك بحسب كلّ ما ترسم، لأنك تعلم أن ليس فينا من يعرف بقطع الشجر مثل الصيدونيّين».

وعندما وصلت الرسالة إلى حيرام، ردّ عليها قائلاً: «قد سمعت ما أرسلت به إليّ، وأنا أحقق رغبتك في أمر خشب الأرز وخشب السرو. وخدّامي ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر، فأجعله أطوافاً في البحر إلى المكان الذي تسمّيه لي، وأفكّه هناك فتأخذه، وأنت تحقّق رغبتي بإعطائك طعاماً لبيتي».

وبدأ حيرام يرسل أخشاب الأرز والسرو إلى سليمان على حسب رغبته. وسخّر سليمان نحو ثلاثين ألف رجل، وكان عشرة آلاف منهم يأتون كلّ شهر إلى لبنان مناوبة للعمل على نقل الأخشاب. كما سخّر سليمان سبعين ألف رجل لحمل الأثقال، وثمانين ألفاً لقلع الحجارة في الجبل. وجعل ثلاثة آلاف وثلاثمئة رجل مشرفين على القوم الذين يعملون. وأمر الملك بقلع حجارة كبيرة وثمينة لتأسيس البيت، أو الهيكل، بالحجارة المنحوتة التي قام بنحتها عمال من صور وجبيل.

وبنى الصوريّون هيكل سليمان بطول ستين ذراعاً وعشرين عرضاً وثلاثين علوّاً. وصنع للهيكل نوافذ بعوارض مشبّكة. وتمّ البناء بحجارة جاهزة من المقلع، فلم تكن تسمع مطرقة أو إزميل ولا شيء من آلات الحديد عند البناء. أما سقف الهيكل فجعل من ألواح خشب الأرز التي صُفّحت بها الجدران الداخليّة، وأما الأرض فرصفت بألواح من شجر السرو. وكان الخشب يشحن بحراً إلى مرفأ يافا، ومن هناك ينقل إلى القدس.

وفي داخل الهيكل، بني محراب مكعّب بضلع طوله عشرين ذراعاً، وكان مخصّصاً ليحتضن تابوت العهد. وقد صنع المحراب من خشب الأرز، ولبّسه الفنانون الفينيقيون بالذهب الخالص، ومدّوا أمامه سلاسل من ذهب. وجعل لباب المحراب مصراعان من خشب الزيتون مع عتبة ودعائم خماسية الوجوه. أما باب الهيكل فقد جعلت له دعائم من خشب الزيتون رباعيّة الوجوه، ومصراعان من خشب السرو، للمصراع الواحد دفّتان متحرّكتان. وبنيت الدار الداخليّة ثلاثة صفوف من الحجارة المنحوتة وصفّاً من لاطات الأرز.

وجاء سليمان بفنّان من صور يدعى حيرام، وكان صانع نحاس ذا حكمة وفهم ومعرفة في عمل كلّ صنع من النحاس. فصبّ عمودين من النحاس، طول

كلّ منهما ثماني عشرة ذراعاً، ومحيطه اثنتا عشرة ذراعاً. وصنع تاجين من نحاس مسبوك ليضعهما على رأس العمودين، علوّ التاج منهما خمس أذرع. وصنع للتاجين حبائك كصنع الشُّباك وضفائر كصنع السلاسل. ونصب حيرام العمودين عند مدخل رواق الهيكل، وسمّى الأول ياكين والآخر بوعز.

وصنع حيرام بحراً من نحاس مستديراً ومسبوكاً، قطره من شفة إلى شفة عشر أذرع، وعلوّه خمس أذرع. ومحيطه ثلاثون ذراعاً. وكان تحت شفته من كلّ جهة قثّاء يحيط به، لكلّ ذراع عشر على صفين محيطين بالبحر كلّه، والقثّاء مسبوك معه في سبك واحد. وكان قائماً على اثني عشر ثوراً، ثلاثة منها وجوهها نحو الشمال، وثلاثة نحو الغرب، وثلاثة نحو الجنوب، وثلاثة نحو الشرق، والبحر عليها، وجميع مؤخراتها إلى الداخل. وكان سمكه شبراً، وشفته كشفة كأس على مثال زهر السوسن، وكان يسع ألفي بثّ، أي نحو تسعين ألف ليتر.

وصنع حيرام القواعد العشر من نحاس، وهي مربعة الشكل، طول ضلعها أربع أذرع وعلوّها ثلاث أذرع. وكانت لكلّ قاعدة أربع عجلات من نحاس بمحاور من نحاس، ولزواياها الأربع، أكتاف مسبوكة تحت الحوض، الواحدة بإزاء الأخرى. وكان فم القاعدة داخل إطار وكان يفوقه بذراع، وكان مستديراً على شكل قاعدة من ذراع ونصف ذراع. وعلى الفم أيضاً كانت نقوش، غير أن ألواحها كانت مربّعة لا مدورّة. وكانت العجلات الأربع تحت الألواح، وألسنة العجلات في القاعدة، وعلوّ العجلة الواحدة ذراع ونصف ذراع. وكانت ألسنة العجلات وأطرها وبرامقها وقبوبها مسبوكة أيضاً. وفي أعلى القاعدة تقبّب مستدير على علوّ نصف ذراع، وفي أعلاها أيضاً ألسنة وألواح هي جزء منها. ونقش على ظاهر ألسنتها وعلى ألواحها كروبين وأسود ونخيل، وحبال زهور من حولها.

ثم صنع حيرام عشرة أحواض من نحاس، كلّ منها يسع أربعين بثّاً. وكان كل حوض بطول أربع أذرع.

* * *

إن الطريقة التي بني بها هيكل أورشليم تدلّ على حذاقة البنائين الفينيقيّين

وبراعتهم في البناء. وهم تميّزوا بأسلوب خاص في فنّ العمارة ممّا جعله يُسمّى باسمهم «الفنّ الكنعاني المعاصر».

وبعدما فرغ سليمان من بناء الهيكل، طلب من الملك حيرام أن يبني له قصراً، فتمّ ذلك في ثلاث عشرة سنة. «فبني بيت غابة لبنان مئة ذراع طولاً وخمسين ذراعاً علوّاً. بناه على أربعة صفوف من أعمدة الأرز، وكان على الأعمدة لاطات من الأرز. وسقفه بالأرز من فوق على العوارض الخمس والأربعين التي على الأعمدة، كلّ صفّ خمس عشرة عارضة. وكانت الشبابيك ثلاثة صفوف، كلّ واحد بإزاء الآخر، وكانت جميع المنافذ والدعائم مربّعة الأطر... وصنع رواق الأعمدة خمسين ذراعاً طولاً وثلاثين ذراعاً عرضاً... وصنع رواق العرش حيث كان يقضي، وهو رواق القضاء، مصفّحاً بالأرز من الأرض إلى السقف. وأمّا بيته الذي كان يسكنه، فكان له دار أخرى داخل الرواق. وصنع أيضاً بيتاً لابنة فرعون التي تزوّجها على مثال هذا الرواق».

وقد بنى سليمان كلّ ذلك بحجارة ثمينة، على قياس الحجارة المنحوتة، منشورة بمناشير من داخل ومن خارج، من الأساس إلى الإفريز، ومن الخارج إلى الدار الكبرى. وكان الأساس من حجارة ثمينة ضخمة، بعضها عشر أذرع وبعضها ثماني أذرع، ومن فوق حجارة ثمينة على قياس الحجارة المنحوتة وأرز. وصنع للدّار الكبرى على محيطها ثلاثة صفوف من الحجارة المنحوتة، وصفّ من لاطات الأرز مثل ما لدار بيت الرب الداخلية ولرواق البيت.

* * *

المقابر الفينيقيّة

إن اعتقاد الفينيقيين بالحياة الثانية جعلهم يدفنون مع موتاهم لوازم مختلفة، بعضها ثمين، ليتصرّفوا بها في تلك الحياة. وهذا الأمر كان لا بدّ أن يعرّض المقابر لغزو اللصوص الطامعين بما قد يعثرون عليه من جواهر وأدوات ثمينة مدفونة مع الميت. لذلك، سعى الفينيقيّون إلى حفر القبور بعيداً عن متناول

العابثين، فكانوا يدفنون موتاهم في حفر عميقة. إلاّ أنهم تخلّوا عن الحفر العميق في مرحلة لاحقة.

وقبل وضع الميت في الحفرة، كانت جثته توضع في جرّة فخارية كبيرة الحجم مفتوحة من جهة واحدة، وتوضع مع الجثة مقتنياته ولوازم مختلفة للحياة الثانية. وبعد ذلك، تقفل الجرة وتودع في القبر الحفرة. وأحياناً، كانت الجرّة النعش تستعمل لأكثر من مرّة، فتفرغ من بقايا الميت لتستقبل جسد ميت آخر.

ولم تقتصر مقابر الفينيقيين على الحفر، بل اتّخذت أشكالاً مختلفة، من أبرزها:

أ ـ أقاموا مقابر على شكل كهوف، وهي ذات فتحة واحدة يُدخل منها الميت إلى القبر حيث يُسجّى وحوله مقتنياته المختلفة. ثم تقفل المقبرة بحجر كبير مستدير الشكل. ويبدو أن هذا النوع من المقابر كان مستخدماً عند بعض الشعوب المجاورة، وخصوصاً العبرانيين. وقد وجد بعض القبور من هذا النوع بالقرب من مدينتي صيدا وصور.

ب ـ المقابر المحفورة في الصخور، وهي عبارة عن آبار يبلغ عمقها بضعة أمتار. ويبدأ القبر بدهليز طويل يؤدّي إلى حجرة هي بمثابة القبر، وفيها يوضع جسد الميت على أرض القبر المغطاة بالرمل أو بالحجارة. وأحياناً، قد يكون القبر متعدّد الدهاليز والحجرات، بحيث تخصّص كلّ حجرة لميت واحد. وقد وُجد هذا النوع من المقابر في مدينتي جبيل وصيدا. وبعدما اقتبس الفينيقيّون عادة دفن الميت في ناووس حجري، درجت هذه العادة لدى ملوك المدن، ولا سيّما ملوك صيدا.

ج ـ إعتمد سكان مدينة أوغاريت نوعاً من القبور مميّزاً، هو عبارة عن طبقة محفورة في أسفل المنزل تشبه القبو أحياناً. وكانت توضع بلاطة عند مدخل القبر حيث تقام الذبائح التي تقدّم إلى الآلهة. ويمكن الوصول إلى القبر عبر دهليز عند مدخل البيت. وكان أهل البيت يجمعون عظام موتاهم في زاوية من زوايا القبر لكي يكون مؤهّلاً لاستيعاب جثة أيّ فرد من أفراد العائلة بعد أن توافيه المنية.

النحت

يشكّل النحت وجهاً حضارياً مشتركاً عند شعوب العالم القديم، وقد دخلته عبر باب الدين. فالديانات القديمة حتّمت وجود آلهة منظورة حاضرة دائماً، في المعابد بشكل خاص، لسماع شكاوى المتعبدين لها ومعالجة مشاكلهم وتقبّل ما يقدّمونه إليها من قرابين وأضاحي.

والفينيقيّون، الذين عبدوا في البداية آلهة مزيّفة، برعوا أيضاً في نحت تماثيل مختلفة الأحجام والأشكال تمثّل آلهتهم المتعدّدة، واستخدموا مختلف المواد المعروفة في ذلك الزمان والتي كانت تشكّل العنصر المادّي للنحت، كالحجارة الكلسيّة والرخام، بالإضافة إلى المعادن كالذهب والفضة والبرونز. كما اهتمّوا بنحت العاج والطين. وقد حفظت يد الزمان بعض التماثيل الفينيقيّة والموجودة حاليّاً في متحف بيروت، وإن يكن التشويه قد أصاب بعضها.

واهتمّ الفينيقيّون أيضاً بنحت قواعد الأعمدة في الهياكل والقصور وتزيينها بنقوش دائريّة مختلفة. ولا يزال بعض هذه الأعمدة قائماً حتى اليوم بين آثار مدينة صيدا.

وبرعوا أيضاً في النقش والزخرفة، وأهم آثارهم في هذا المجال كان زخرفة قصر آحاب العبراني في السامرة. فقد زيّنوه بنقوش رائعة كان العاج مادّتها الرئيسيّة. وكانوا قد تعلموا النقش في العاج من جيرانهم المصريّين. وقد دُعي القصر الذي كانت سيّدته أميرة من صور تدعى إيزابل «بيت العاج». وأثاث القصر الذي عثر عليه بنتيجة الحفريّات كان أيضاً مطعّماً بالعاج والذهب. وغُلّفت غرف القصر بخشب الأرز الذي طُعّم بنقوش ورسوم مصنوعة من ألواح العاج. ومن أعمالهم في هذا الحقل أيضاً تزيين قصر عبرانيّ آخر وجد في منطقة مجدّو، ويعود

تاريخه إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

وفي مجال آخر، نقش الفينيقيّون النواويس الحجريّة أو المصنوعة من معدن أو خشب أو طين، وزيّنوها برسوم تمثّل بعض الحيوانات والطيور وبمقاطع من الكتابة الهيروغليفيّة. ونقشوا أيضاً أوانٍ مختلفة وطعّموها بالمعادن الثمينة، وصنعوا الأسلحة المزخرفة.

ونحت الفينيقيّون الأنصاب التي جعلوها في معابدهم وهياكلهم، متأثّرين في ذلك بالفن المصري. وأبرز الأنصاب التي لا تزال موجودة حتى اليوم نصب جبيل الذي تبدو فيه الإلهة عشتروت في زيّ الآلهة المصريّة تتقبّل التقادم من ملك المدينة يَهْوْ مِلك. وأحياناً، كانت الأنصاب بسيطة وخالية من النقوش لتوفير الوقت والمال.

الموسيقى والرقص

إرتكزت الطقوس الدينية الوثنيّة عند الفينيقيّن على الغناء والرقص، كالعديد من الشعوب الأخرى التي عاصرتهم. وهذا الأمر دفعهم إلى تعلّم هذين الفنيّن وإتقانهما جيّداً حتى ارتفعوا بالموسيقى إلى درجات عالية من الرقيّ، ممّا جعل فنّهم هذا ينتشر في حوض المتوسّط حيث تكاثر الطلب على المغنيّن والمغنيات من أبناء وبنات المدن الفينيقيّة.

في البداية، أخذوا الكثير من عناصر الموسيقى عن الشعوب التي كانت تستوطن الشرق الأدنى، ثم استقلّوا بعملهم واتّخذوا هويّة فنّية خاصة بهم. وبعدما كان الغناء يقتصر على المعابد والاحتفالات الدينيّة، غدا أمراً شعبيّاً في الاحتفالات الخاصة والأعراس وغيرها.

وقد يعود إليهم الفضل في ابتكار أو تطوير بعض الآلات الموسيقيّة التي ظهرت في عصرهم، كالعود Lute الذي لم تعرفه مصر الفراعنة إلاّ بعد فتوحات تحوتمس الثالث الذي غزا لبنان في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، وبالتحديد سنة ١٤٧٩ق.م. بعد انتصاره في معركة «مجدّو». وأوّل ظهور للعود في مصر يعود إلى عهد الأسرة الثانية عشرة، وذلك في بعض الآثار المنحوتة. كذلك، إن لفظة العود تعود إلى أصل ساميّ.

ومن الآلات الأخرى التي عرفها الفينيقيّون واستخدموها الناي والدربكة. وبدا تأثيرهم الموسيقيّ على جيرانهم واضحاً في الألحان التي وضعها داود النبي لمزاميره والتي ساهمت في إدخال الموسيقى والغناء إلى الحياة الدينيّة لدى العبرانييّن. أما الإغريق فلم يتورّعوا عن اقتباس العديد من الألحان الفينيقيّة وإدخالها في تراثهم الموسيقي. كما أنهم أبقوا على التسميات التي أطلقت على

الآلات الموسيقيّة التي أخذوها عن الفينيقيّين.

أما الرقص، وهو رفيق الموسيقى إلى جانب الغناء، فقد استحوذ على اهتمام الفينيقيّين إلى درجة أنهم جعلوا من بين آلهتهم المتعدّدة إلهاً للرقص، وهو «بعل مرقد». وبرعوا في الرقص الذي أصبح عنصراً أساسيّاً في احتفالاتهم الدينيّة، وخصوصاً العيد السنوي للإله أدونيس حيث كانت الرقصات ترافق الموسيقى والغناء وتتمّ على إيقاعات الآلات الحادّة، كالخناجر والسيوف، التي كان يتنافس بها الراقصون.

وكان عيد قطاف العنب فرصة أخرى تجمع هواة الرقص للتعبير عن الفرح بمواسم الخير التي تعطيها الأرض والأيدي التي تزرع بالمحبّة والعطاء أحشاءها.

وتؤكّد المراجع التاريخيّة أن رقصة الدبكة اللبنانيّة المعروفة اليوم تعود في الزمن إلى أيام الفينيقيّين، وقواعدها الأساسيّة التي وضعوها لا تزال معتمدة كما كانت تقريباً. وهي تقسم إلى ثلاث مراحل:

ـ المرحلة الأولى، وفيها الرقص المنفرد، وهي تشكّل بداية الرقصة.

ـ المرحلة الثانية، وهي تمثّل الدبكة الحقيقيّة حيث ينقسم الشبّان والشابات في حلقات راقصة منفصلة.

ـ المرحلة الثالثة ـ وقد تمّ التخلّي عنها في مرحلة لاحقة ـ فهي للراقصات المحترفات اللواتي يقمن بالرقص في احتفالات غير دينيّة. ويتّسم رقصهنّ بالخلاعة والإباحيّة.

وكما الموسيقى، انتشرت عادة الرقص لدى شعوب مجاورة، كالعبرانيّين. وفي الكتاب المقدس ـ العهد القديم ـ ورد في سفر صموئيل الثاني كيف أن داود النبي رقص أمام تابوت العهد مقتبساً عن الفينيقيّين طقساً دينيّاً راقصاً يدور حول تأليه الخصب. وورد في الكتاب المقدس ـ العهد القديم ـ أيضاً أن القاضي شمشون الجبار أدّى رقصة أمام الفلسطينيّين مستوحاة من الرقصات التي كانت معروفة في

المدن الفينيقيّة.

* * *

يمكن اختصار الفنون التي مارسها الفينيقيّون بأنها كانت خليطاً من فنون الشعوب التي عاصرتهم، وقد أضافوا إليها عصارة أحاسيسهم وذوقهم وإبداعهم فأخرجوها في أبهى حلّة، في البناء والنحت والنقش والزخرفة والأواني الثمينة المرصّعة بالأحجار الكريمة، والأقمشة الأرجوانية المزيّنة. ويضاف إلى ذلك فضلهم في نشر الموسيقى والرقص والغناء، وهي كلّها فنون، فرديّة كانت أو مجتمعة، تدلّ على الإبداع الفينيقي وعلى دوره في نشر هذه الناحية الحضاريّة التي كان يفتقر إليها العالم القديم والتي أغناه بها الفينيقيّون ذوقاً وجمالاً ورقيّاً جعلته يقبل عليها بلهفة ويتبنّاها ويدخلها في تقاليده اليوميّة، الاجتماعية والدينيّة.

... فمضى داود وأصعد تابوت الله بفرح من بيت عوبيد أدوم إلى مدينة داود. ولمّا خطا حاملو تابوت الربّ ستّ خطوات، ذبح ثوراً وعجلاً مسمّناً. وكان داود يرقص ويدور على نفسه بكلّ قوّته أمام الربّ، وكان داود متمنطقاً بأفود من كتّان. وأصعد داود وكلّ بيت إسرائيل تابوت الربّ بالهتاف وصوت البوق.

ولمّا دخل تابوت الربّ مدينة داود، أطلّت ميكال ابنة شاول من النافذة، ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب، فازدرته في قلبها...

ـ العهد القديم ـ سفر صموئيل الثاني ـ

الفصل السابع

العلوم

فرضت حياة الفينيقيّين التجارية والاجتماعية عليهم خوض مجالات علميّة مختلفة؛ فالمشاكل الصحيّة والأمراض وجّهتهم نحو دراسة الطب والصيدلة لمواجهتها. والتجارة دفعتهم إلى علم الحساب لتسهيل معاملاتهم التجارية مع الشعوب المختلفة. والملاحة البحريّة استلزمت منهم دراسة معّمقة لعلم الجغرافيا والفلك. أما الرياضيّات فكانت الباب الذي ولجوا منه إلى عالم الهندسة بوجوهه المختلفة.

الطب والصيدلة

ضاهى الطبّ الفينيقي الطبّ المصري براعة وشهرة. وقد جعل الإله أشمون شفيعاً للمرضى في مدينة صيدون، وكان يرمز إليه بأفعى ترمز إلى الصحة والحياة الطويلة. وأقيمت أمام معبده بركة مملوءة بماء مقدّسة كان المرضى يستحمّون فيها أملاً في الشفاء.

لكن الطبّ الفينيقي ارتكز في البداية على بعض الشعوذات، انطلاقاً من الاعتقاد بأن الأمراض ناتجة عن قوى غير طبيعيّة شريرة. فكانت لكهنة معبد أشمون الفرصة لممارسة بعض أنواع السحر على المرضى على اعتبار أنّهم يتحلّون بقوى غير طبيعيّة قادرة على طرد الشرّ الذي يسبّب الأمراض.

إلاّ أن الخبرة أكدت للفينيقيين أن المعالجات التي يقوم بها الكهنة لا تؤدي إلى أيّ نتيجة فعّالة، فاتّجهوا نحو دراسة الأسباب التي تنتج عنها الأمراض. فراقبوا الحشرات، وخصوصاً الذباب، وعرفوا مضارّها وعلاقتها بتفشّي الأمراض والعدوى. وكانوا يلجأون إلى إله الذباب «بعل زبوب» لينجّيهم من أذى هذه الحشرة. ثم عرفوا العلاقة التي للجرذان في انتشار مرض الطاعون القاتل، فسعوا إلى مكافحتها عبر تقديم تماثيل مصغّرة لها إلى الآلهة لتكفّ عنهم أذاها.

وبعدما اتّجهوا إلى دراسة الطبّ بمختلف وجوهه، لم يعد الكاهن هو الطبيب بالضرورة. وبدأ العمل في الصيدلة، وتركيب الأدوية التي جعل كلّ منها مناسباً لحالة مرضيّة معيّنة. وبرعوا أيضاً في الطبّ البيطري، وقد عالجوا العديد من الأمراض التي كانت تصاب بها مواشيهم وجيادهم وغيرها.

هذه النقلة النوعيّة في الطبّ لدى الفينيقيّين يردّها بعض المؤرخين إلى العلاقة

التي كانت تربطهم بالمصريّين من جهة، وبشعوب بلاد ما بين النهرين من جهة ثانية. وقد أفاد الفينيقيّون من خبرة هذه الشعوب وما توصّلت إليه في هذا الحقل، إلاّ أنهم لم يتوقفوا عند حدّ الاقتباس، بل عمدوا إلى تطوير ما حصلوا عليه وأضافوا على الطبّ القديم أشياء كثيرة مفيدة.

الجغرافيا

إن أبرز من عملوا في الجغرافيا بطريقة علميّة لدى الفينيقيّين كان مارينوس الصوري الذي وضع خريطة العالم القديم مستنداً في معلوماته على ما كان ينقله البّحارة الصوريّون والرحّالة من أخبار عن العالم الذي كانوا يشاهدونه في أسفارهم، والتي جهلها معظم الشعوب آنذاك.

وكان مارينوس متأكّداً من أن الأرض كرويّة، وكان يأمل في تحقيق خريطة للعالم كلّه. وقد حقّق له هذه الأمنيّة تلميذه اليوناني بطليموس. والإيمان بكرويّة الأرض جعل مارينوس يستنبط خطوط الطول وخطوط العرض التي استفاد منها بطليموس أيضاً في تحديد الأماكن على الخريطة. وخطوط الطول والعرض ما زالت حتى اليوم ركناً أساسيّاً في علم الجغرافيا الحديثة.

وقد يكون مارينوس قد ارتكب بعض الأخطاء في رسم خريطته، إلاّ أن مؤلّفه «تصحيح الجغرافيا» الذي لم يبق أيّ أثر منه ساعد بطليموس كثيراً في وضع الأسس التي ترتكز عليها الجغرافيا المعاصرة. وكان لمارينوس كذلك دور في الأبحاث التي أجراها الباحث الجغرافي العربي المسعودي والذي كان له فضل كبير في تسليط الأضواء على أهمية مارينوس الصوري الذي كان مهملاً.

الحساب والرياضيات

كان الفينيقيّون بارعين في العلوم الحسابيّة كونهم تجّاراً يبيعون ويشترون. وكانت عمليّات الحساب في البيع والشراء أكثر صعوبة في زمن التعامل بالمقايضة، وقبل البدء باستعمال النقود.

أمّا في الرياضيّات فبرز كلّ من إقليدس وفيثاغور اللذين لعبا دوراً مهماً في الهندسة، والقواعد الهندسيّة التي وضعاها ما تزال ركناً أساسيّاً في علم الرياضيات المعاصر.

* * *

وفي مجالات علميّة أخرى، اهتم الفينيقيّون بعلم الفلك للاستفادة منه في ملاحتهم البحريّة، فاكتشفوا النجم القطبي بعد مراقبته لفترة، وقد أطلق عليه الإغريق تسمية «النجمة الفينيقيّة» للدلالة على أن الفينيقيّين هم مكتشوفه. وتمكّنوا أيضاً من اكتشاف كوكبتي «الدبّ الأكبر» و «الدبّ الأصغر». وهكذا، أصبحوا أسياد البحار وهدوا الإغريق إلى ما اكتشفوه.

ولم تقتصر فوائد الملاحة البحريّة على علم الفلك فحسب، بل كانت الرحلات البحريّة مناسبة لإجراء أبحاث مختلفة في علمي الحيوان والنبات وغيرهما.

ويروى عن العالم الصوري موخوس أنه أوّل من نادى بما يُعرف بالنظريّة الذريّة.

الفصل الثامن

الحفريات والآثار

إن التاريخ الفينيقي الحافل بالمآثر الحضاريّة المتعدّدة، بالإضافة إلى شهرة هذا الشعب التي انتشرت في معظم أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسّط، جعلا من علماء الآثار العالميين والمستشرقين والمهتميّن بتاريخ الشعوب القديمة يأتون إلى لبنان خلال القرون القليلة الماضية، وحتى اليوم، للقيام بحفريات للكشف عن آثار المدن الفينيقيّة التي طمرتها الزلازل التي ضربت لبنان مرّات عدّة، بالإضافة إلى دور الغزاة في إحراق هذه المدن وتدميرها لأكثر من مرّة أيضاً.

وقبل ذلك، كانت بقايا المدن الفينيقيّة، وإن يكن بعضها من آثار الشعوب الغازية، عرضة للنهب، ومقلعاً للحجارة ذات النوعيّة الجيّدة، بالإضافة إلى أعمدة الرخام والغرانيت والكنوز الثمينة المدفونة في القبور التي كانت محطّ أطماع اللصوص والعابثين.

وقد بدأت الحفريات الجدّية في أواسط القرن التاسع عشر مع المستشرق الفرنسي رينان الذي قام بحفريات مختلفة في صور، في السوق وقرب المرفأ والعين. وأسفرت أعماله عن إيجاد نواويس وفخاريات ذات الطابع الفرعوني.

أمّا أوّل الآثار الفينيقيّة التي كانت ذات أهمّية فكانت كتابة من صور يعود تاريخها إلى الألف الثالث ق.م. والكتابة منقوشة على حجر مكعّب، موضوع فوق خزّان ماء، وهي تتضمّن أسماء بناة الخزّان الذي تصل المياه إليه عبر الحجر نفسه والمثقوب في وسطه.

وفي العام ١٨٩٨، عُثر في منطقة الصّليب في صور على قطعة رخاميّة عليها كتابة تعود إلى مجلس الشعب الصوري.

وتوالت الحفريات مع حلول القرن العشرين، فكانت أهمّ الآثار تلك التي وُجدت في صور وتعود إلى فترات زمنيّة مختلفة:

ـ مدافن ونواويس رخاميّة تعود إلى العهد الروماني، وقد استولت السلطنة

العثمانية على معظمها ونقلته إلى الآستانة.

ـ فخاريات وزجاجيّات ونقود تعود إلى فترات زمنيّة مختلفة.

ـ مذبح حجري يمثّل الآلهة الثلاثة، ملكارت وعشتروت وبعل شميم.

ـ بقايا المرفأ المصري الذي أقيم في القسم الجنوبي من صور البحريّة.

ـ معبد فينيقي مقام تحت الأرض وتربطه بسطحها ست وعشرون درجة، وهو يعود إلى القرن الثاني ق.م. وقد زُيّنت جدرانه بصور ونقوش مستوحاة من ملحمة «الألياذة» لهوميروس، إحداها تمثّل والد هكتور راكعاً على ركبتيه أمام أخيل الذي قتل ابنه، وهو يقبّل يده راجياً منه أن يسلّمه جثة ابنه.

وبعد استقلال لبنان سنة ١٩٤٣، قامت الدولة بحفريات مختلفة في صور وغيرها، وأدّت إلى اكتشافات مختلفة:

ـ شارع معبّد بالفسيفساء في صور، وقد أقيمت على جوانبه أعمدة رخاميّة. وقربه ملعب مربّع الشكل تقريباً ومحاط بمقاعد حجريّة وخزّانات للمياه وحمّامات، وهي تعود إلى العهد الهلّيني ـ الروماني.

ـ مذبح حجري للإله ملكارت في صور عثر عليه قرب الكنيسة الصليبيّة. وقد حفرت عليه كلمات تحمل اسم الإله واسم صاحب التقدمة.

ـ قوس نصر في الشارع المؤدّي إلى صور الرومانيّة. وهذا الشارع كان محاطاً بالأعمدة والدكاكين وبمحاذاته قناة مياه.

ـ أعداد كبيرة من النواويس تعود إلى العهد الروماني، وعليها نقوش مستوحاة من الميثولوجيا الإغريقيّة.

ـ ناووس أحيرام، ملك صور.

وشملت الحفريات التي جرت في لبنان مدن صيدا وجبيل وطرابلس وفقرا وغيرها من الأماكن التي بنى عليها الفينيقيّون مدنهم. وأسفرت عن آثار مختلفة، من نقود وفخاريات وزجاجيّات وحلى وأوانٍ مختلفة، بالإضافة إلى النواويس وبقايا القبور والمعابد وغيرها.

الحفريّات الحديثة

شكّلت الحرب التي شهدها لبنان بين ١٣ نيسان ١٩٧٥ و١٣ تشرين الأول ١٩٩٠ عائقاً كافياً أمام متابعة الحفريات في مختلف المناطق اللبنانية. وإذا كانت هذه الأعمال لم تستأنف بشكل مباشر بعد توقّف الحرب، فإن مشروع إعادة إعمار وسط العاصمة بيروت التي دمرّتها الحرب فتح الباب بشكل واسع أمام استئناف الحفريّات بعد اكتشاف بالصدفة لبعض الآثار التاريخيّة. وهكذا، راح التاريخ يطلّ من تحت أنقاض بيروت مبعوثاً بسواعد الجرّافات وما توفّر من آلات الحفر والتنقيب الأخرى.

كذلك، جرى اكتشاف آثار عديدة خلال السنوات الأخيرة في صيدا والصرفند وجبيل ومناطق لبنانيّة أخرى.

بيروت

إن أهمّ الاكتشافات التي تمّت في لبنان خلال السنوات الأخيرة كانت في وسط مدينة بيروت وكانت نتيجة غير مباشرة لمشروع إعادة الإعمار.

وأوّل ما برز إلى النور كانت بيروت الفينيقيّة، المدينة التي عمرها خمسة آلاف سنة، ولا أيّ ذكر أو أثر لها عبر التاريخ منذ القرن السابع ق.م. وها هي تطلّ من جديد من تحت ركام الدهر في أواسط تموز ١٩٩٤.

بيروت الفينيقيّة إلى النور من جديد. تبعث اليوم، مثل طائر الفينيق. والآثار الأولى لبيروت الفينيقيّة اكتشفها فريق متحف الجامعة الأميركية في لبنان بإدارة الدكتورة ليلى بدر في موقعه شمال سينما الريفولي.

وظهر من الحفريات سور المدينة الكبير الذي يتألف من جزأين:

١ ـ سور مزدوج من الحجر الكبير غير المنحوت يمتدّ على عرض السبر، في موازة خطّ الساحل القديم الذي يبعد نحو ٢٥٠ متراً عن خط الساحل الحالي، ومفترض له أن يكون على مستوى أعلى في تلك الفترة. وتقوم المسافة بين هذا السور والساحل القديم على عرض ٢٠ متراً.

٢ ـ الجزء الثاني من السور يتألف من جدار منحدر ومنحنٍ يغطّي الجهة الجنوبية للتلّ، وهو مرصوف بحصى ضخمة مصفوفة بإحكام في ما بينها، يبلغ انحناؤه ستين درجة وارتفاعه أربعة أمتار، إلى توغله في الأرض على عمق أكبر. وقمّته خدّشتها طريق الإسفلت الحالية، وبدا مدهشاً بل عجائبياً وجود هذا النصب الأثري الذي يعود إلى تلك الفترة السحيقة، على ارتفاع خمسين سنتيمتراً فقط تحت الطريق. وفي المقابل أسف علماء الآثار لأن تكون أساسات مبنى البيبلوس حطمت تحطيماً عميقاً وخطيراً وإلى الأبد جزءاً من قلب المدينة الفينيقيّة.

وتعكس الآثار المكتشفة، بحسب التقرير من الدكتورة بدر إلى مديرية الآثار، رأيا يقول بقيام المدينة الفينيقيّة على مستويين:

١ ـ أكروبول محمي بسور منحدر، ومدينة مرتفعة قائمة عند أسفله محوطة بالسور المزدوج، وربما مدينة أخرى منخفضة قد تسمح حفريات في العمق تحت طبقة المياه باكتشافها، إذا اقتضى الأمر.

وكانت المدينة شهدت حريقاً ضخماً وجد رماده مكدّساً على سماكة أكثر من متر، وقد تكون تسببت به الغارات التي شنّها الأشوريون في القرنين التاسع والثامن من قبل الميلاد.

٢ ـ المستوى الفينيقي الثاني الذي اكتشف يعود إلى ما بعد الحريق. وهو لافت من حيث النوعيّة والمال في الفخار الملون بالصباغ الأحمر الذي وجد في المدينة العليا، لا سيّما صحون وأوعية من طراز «مارلي».

وحيث أن تاريخ أية مدينة يستقي من مصدرين متكاملين: الكتابات التاريخية والآثار التي تعطي الدلائل الحسيّة، فإن بيروت التي ذكرتها ألواح تل العمارنة الكتابية (القرن ١٤ قبل اليلاد) وألواح أوغاريب (القرن ١٣ قبل الميلاد) اختفى ذكرها من الآثار على مدة ستة قرون من القرن الثاني عشر قبل الميلاد وحتى القرن السابع.

وإن غياب أي آثار تدلّ على تلك الحقبة، يضفي أهمية بالغة على هذه الاكتشافات «التي ملأت الفراغ التي أوجدته هذه الثغرة في تاريخ بيروت».

وفي ٥ حزيران ١٩٩٥ استطاع فريق خبراء الآثار التابع للجامعة اللبنانية بإشراف الدكتور حسين صايغ، الكشف عن قسم من التخطيط المديني الفينيقي لمدينة بيروت وما يحويه من طرقات ومجمّعات سكنية منظمة. هذا الاكتشاف ألغى الاعتقاد السائد بأن التخطيط المديني الأول لبيروت كان إغريقياً وأثبت أنه كان فينيقياً يعود تاريخه في هذه المنطقة إلى الحقبة الفارسية في القرون السادس والخامس والرابع قبل الميلاد.

أما الوحدات السكنية المكتشفة لبيروت الفينيقيّة فهي تمتدّ على مساحة ١٢٠٠ متر مربّع، ومقسّمة هندسيّاً إلى ثلاثة مستويات بحسب الانحدار الأصلي للصخور التي تتكوّن منها الأرضيّة الأساسيّة للمدينة.

كما عثر على منازل مقسّمة حجرات عدّة مختلفة الأحجام والوظائف، بالإضافة إلى التنوّع بين الوحدات السكنيّة المتجاورة. أما الفخاريات والدمى والنقود المكتشفة، فهي تدلّ على تطوّر الوضع الاقتصادي للمدينة. خصوصاً أن بينها فخاريات مستوردة من بلاد اليونان خلال فترة الاحتكاك الفينيقي ـ اليوناني على هامش الحروب الميدية والكثير من الأواني المصنوعة محلياً. كما أن الفنّ المحليّ استعمل لتغطية أرضيات المنازل بسماكة وصلت أحياناً إلى ٣٠ سنتم، وقد عثر على أجزاء كثيرة منها.

كذلك تمّ اكتشاف جدار من اللبن، أساساته من الحجر، يرجّح أنه يعود إلى العصر البرونزي القديم (٢٣٠٠ ـ ١٩٠٠ ق.م).

وإلى أقصى الشمال من تلّ بيروت عثر على خابية من الفخار في داخلها هيكل عظمي لطفلة في الثالثة من عمرها نبيلة الأصل دفنت وهي جالسة وحول عنقها عقد من الحجارة الكريمة، وحول الخابية ثلاثة أباريق من الفخار مختلفة الأشكال تعود إلى العصر البرونزي الوسيط (١٩٠٠ ـ ١٧٠٠ ق.م).

وفي الموقع ذاته غرفة منحوتة في الصخر مساحتها ١٦ متراً مربعاً، وارتفاعها ثلاثة أمتار أرضيتها مرصوفة تكدّست فيها الخوابي والقدور والصحون والأباريق والكؤوس وسهام من البرونز وسرج للزيت. وكلّها تعود إلى العصر البرونزي الحديث (١٤٠٠ ـ ١٣٠٠ق.م).

بعد ذلك، توسّعت الحفريّات وأعمال التنقيب في وسط بيروت والمناطق القريبة منها بحثاً عمّا قد تخبّئه الأرض من آثار الأيام الغابرة ومعالم حضارات مختلفة شهدها لبنان على مرّ العصور.

● في منطقة الجميزة عثر الخبير الفرنسي جاك تيكسييه على عدد من قطع

الصوّان الصقول مطمورة تحت آثار تعود إلى العهد الروماني ـ البيزنطي، وهذه القطع الصوّانية مغطّاة بطبقات من الطين الأسود وهي تشبه مثيلاتها المكتشفة في منطقتي رأس بيروت ونهر ابراهيم، وقد استعملها الإنسان قبل ٦٠ ألف سنة ق.م. تقريباً.

● في منطقة تلّ بيروت، اكتشاف قلعة صليبية من القرن الثاني عشر الميلادي بين شمال موقع سينما ريفولي السابق والبحر. وعثر بين أنقاضها على عدد كبير من الأعمدة الرومانية التي استعملت لدعم هذه القلعة.

● غرب ساحة البرج، ظهرت أجزاء أساسية لرسم لما يشبه قصة إبراهيم الخليل وهو واقف قرب شجرة نخيل، حاملاً بإحدى يديه سكيناً وممسكاً باليد الأخرى بابنه. فيما بدت يد إلهية تمسك بجزء صغير من كبش غاب أكثر رأسه وجسمه.

وقد ضمت هذه الآثارات أيضاً محفورات لمعبد وصيادين وبيت أسد وسيدة نائمة ومصارعين، كلّها تعود إلى الفنون الشرقية.

● في المنطقة الواقعة بين كاتدرائيّتي مار جرجس المارونية ومار جرجس لطائفة الروم الأرثوذكس، كشفت الضوئيات عن فسيفساء بعمق أربعة أمتار، وموجودات أثرية تعود إلى نهاية العصر الروماني وبداية العصر البيزنطي، بينها جرار وقطع برونزية، وتصميم لمنزل بيزنطي، وشمعدانات وسراج وفخاريات منها ما هو قبرصي المصدر ومنها ما هو من شمال أفريقيا وتركيا وإيطاليا وبعض الجرار الفخارية التي كتبت عليها عبارة تقول: «بيروتوس كولونيا»، أي «مستعمرة بيروت».

كذلك عثر على تمثال من الرخام يحمل بين ذراعيه فاكهة وأزهاراً وهو شبيه بالتمثال بالبرونزي الذي وجد في بومباي في إيطاليا.

● أمام فندق هيلتون وقبالة مكبّ النورماندي، كشفت الحفريات عن جدار ظهر أعلاه على عمق نحو متر واحد من سطح الطريق العامّة.

ويرجّح أن يكون الجدار عثمانياً ويعود بناؤه إلى القرن الثامن عشر. وفي

المنطقة نفسها، اكتشفت جدران تعود إلى الحقبة الهلينيّة. وفي وسط الموقع عثر على حفرة في الصخر، وعلى جنوبها مقلع صخر. وفي داخل الحفرة، وجد رمح مصنوع من الحديد، ورأس تمثال من الفخار يمثّل صورة خيّال فارسي قد يكون استخدم في عصور لاحقة. كما عثر على قطع نقديّة لم تحدّد حقبتها الزمنيّة.

وفي المغارة المكتشفة في الجهة الشرقيّة الجنوبيّة من الموقع، تمّ العثور على أوانٍ فخاريّة وفوانيس، أحدها يحمل رسم وجه حصان وذنب سمكة، وكان يعرف في زمنه باسم hypocamp.

● في منطقة «رينغ» الرئيس فؤاد شهاب عثر على بئر عثمانية يبلغ عمقها ٢٥ متراً، وكانت مغلقة بطريقة تحول دون نفاذ الوحول إلى داخلها. وإلى الجهة الغربيّة من البئر ظهرت قطعة غير مكتملة من الموازييك تبلغ مساحتها ٣٠٠ سنتمتر مربّع، وعثر على تمثال للإله اليوناني «أبولو».

● في منطقة برج المرّ، عثر على مقبرتين من العصرين الروماني والبيزنطي. وهما تعودان إلى القرنين الرابع والثالث ق.م. ووجد في المقبرة الرومانيّة ثلاثة توابيت حجريّة مملوءة بالتراب، أحدها مصنوع من الرخام وجوانبها مزيّنة بالنقوش الرومانية.

أما المقبرة البيزنطيّة فقد تكون مدفناً عائليّاً يضمّ سبعة أضرحة فيها بقايا عظام لأطفال وبالغين.

وفي منطقة برج المرّ، عُثر أيضاً على هيكل عظمي يعود لفتى روماني في العاشرة من عمره يطلّ من جرّة. فيداه وصدره صغيرا الحجم والأسنان التي وجدت في فكّه نمت بعد سقوط أسنان الحليب. وكان رأس الطفل ونصف جسده موضوعين داخل جزء من جرّة، ويده اليمنى تمتدّ في موازاة جسمه، واليسرى فوق بطنه.

ومن المعلوم أن الرومان بنوا القبور على تلال مدنهم، وبعد التنقيب الذي قام به خبراء الآثار قبالة برج المرّ وجدوا عظاماً تعود إلى بشريّين من العهد

الروماني، على ما دلّ النسر والفخاريات التي عثر عليها في الموقع نفسه.

وفي المكان نفسه أيضاً، عُثر على ناووس يشبه غطاؤه أغطية النواويس الموجودة في صور. وعثر أيضاً على ثلاث قطع من عمود روماني.

● في منطقة كاتدرائية مار جرجس المارونيّة، توصّلت الحفريّات التي أشرفت عليها الدكتورة منتهى صاغيّة إلى اكتشاف طريق رومانية جديدة اسمها «كاردوماكسيموس» تتصل بالطريق الأولى التي عثر عليها سابقاً والمعروفة باسم ديكومانوس.

المنقّبون تمكّنوا من تحديد هوية هذه الطريق استناداً إلى التخطيط الذي اعتمده الرومان في تشييد مدنهم. ولهذه الطريق امتدادات تحت الأرض غير ظاهرة للعيان، ومن الضروري استكمال الحفريات لكشف النقاب عن الأجزاء الباقية.

الطريق الرومانية الجديدة تخترقها جدران من عصور مختلفة ممّا يؤكّد أنها لم تستخدم فقط أيام الرومان، وتمرّ فيها قنوات عدة مصدرها الفيلات الرومانية، حيث وجدت قطعة موزاييك وأباريق برونزية وشمعدانات.

ومن المكتشفات أيضاً مخزن للفخار يعود إلى العهد البيزنطي، وفيه تراكمات من القطع الفخارية وجرار لا تزال في حال جيدة، لهما شكل الجزرة (carrot shape) وتعودان إلى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، وثالثة صنعت في فلسطين، ويرجح أنها وصلت إلى بيروت، عن طريق التبادل التجاري.

بعد رفع جزء من هذه الفخاريات في البقعة التي وجدت فيها، عثر على طبقة رومانية تضمّنت أربع قطع فخارية صغيرة كتب على إحداهما BER وعلى الأخريات BER COL.

وهذه الأحرف تعني: «مستعمرة بيروت الرومانية»، وهي المرة الأولى التي تكتشف فيها كتابات باللغة اللاتينية على قطع من الفخار، فكل الكتابات التي وجدت سابقاً كانت باللغة اليونانية.

وكان خبير الفخاريات الانكليزي جون هايز الذي أجرى دراسات على الفخار

في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، وجد قطعة فخار في قبرص نقش عليها حرفا ER، ولكنه لم يستطع فك رمزيهما، ولكن توضحت له الأمور حين عثر على هذه القطع التي أثبتت أن بيروت كانت مستعمرة رومانية مهمة.

إن «جوليا فينيكس بيريتس كولونيا» هو الاسم الذي أطلقه الامبراطور الروماني أوغسطس على بيروت وأمر بإعفاء سكانها من الضرائب، أما صناعة الفخار فانتشرت في معظم أقطار الامبراطورية الرومانية بعدما بدأت في العصور الهلينية. وكانت مدينة أرتزو في إيطاليا مركزاً صناعياً أساسياً وسرعان ما شرعت تقلدها مدن أخرى.

أمّا ختم الفخاريات فهو باسم المدينة المصدرة. وهذا يؤكد أهمية بيروت كمركز اقتصادي وثقافي انطلاقاً من علاقاتها التجارية ببقية مدن الامبراطورية الرومانية.

وفي المنطقة نفسها، تمّ اكتشاف صليب وثلاث قطع من البرونز تعود إلى العصر البيزنطي، وإبريق ووعاء كبير في داخله وعاء أصغر وإبريق شاي مع مصفاته.

وتوصّل الفريق المنقّب إلى ثلاث طبقات:

١ ـ طبقة من العصور الوسطى، وفيها أفران لشوي الفخار وأنواع من الفخار المطلي من العصور بين التاسع والرابع عشر للميلاد. وجدران من العصور الوسطى، بنيت فوق جدران من العصرين البيزنطي والروماني، أُعيد استعمالها أساسات في العصور الوسطى.

٢ ـ طبقة من العصر البيزنطي: ووجد فيها فخار وجدار (Amphores) تحفظ فيها المؤونة والعطور والزيت. كذلك قطع فسيفساء وسراجات فخارية وبرونزية.

٣ ـ طبقة من العهد الروماني ومنها جرار فخار أيضاً وقناة مياه وأرضية مبلّطة (Dallage).

ومن أغرب ما عثر عليه جرة فخار تعود إلى العهد البيزنطي الأول نبتت فيها حبوب نباتية، وأيضاً مجموعة من الأصداف.

ومن المكتشفات المهمّة طريق رومانية تتّجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ربما هي إحدى الطرق التي تصل إلى محور كاردو مكسيموس وتقطع الطريق على زاوية قائمة.

والطريق تحت ثلاث طبقات من الأرضية المكلسة وفيها قناة للمياه. وفي الطبقة العليا منها وجد فخار روماني مدموغ من نوع (Terro Sigillata).

● في منطقة سوق الطويلة، تمّ العثور على مجموعة من الفخاريات من العهد الفينيقي، ممّا يدلّ على أن المدينة الفينيقيّة لم تكن في جوار ساحة الشهداء، بل تمتدّ إلى هذه المنطقة أيضاً، على قول خبراء الآثار.

ومن الاكتشافات في هذه المنطقة أيضاً:

١ ـ العثور على طبقة إسلامية غنيّة (القرن ١١ ـ ١٦م) تدلّ على الأهمية التجارية والصناعية للمنطقة لكونها قريبة من ميناء بيروت التاريخي. ووجد فيها أنقاض أفران لتصنيع الفخار والزجاج، ونموذج لفرن مملوكي محفوظ في قسمه الأول مع مسطح الطبقة الثانية، يمكن نقله إلى المتحف الوطني. وعثر على الكثير من الفخار والزجاج الإسلامي بأشكاله المتنوّعة وهو مزخرف ومزيّن وملوّن، وعلى بئر لتخزين مياه الشفة، وهذا ما يثبت أن بيروت كانت تعاني دائماً أزمة في مياه الشفة.

٢ ـ طبقة رومانية ـ بيزنطية لا تقلّ عن الطبقة الأولى، وفيها مبانٍ ضخمة جداً، ليست بيوتاً سكنية، بل ربما تكون برج حراسة أو ثكنة أو موقعاً استراتيجياً له علاقة بحراسة الميناء.

كذلك أنقاض معمارية منها تيجان أعمدة كورنثية وقواعد أعمدة تدلّ على أنه كانت في هذه البقعة شوارع مسورة بأعمدة من الطراز الكورنثي من القرون بين

الأول والخامس للميلاد.

وفي هذه الطبقة أيضاً موازييك أو فسيفساء بيزنطية وأكثر من عشرة إهراءات (مخازن حبوب) محفوظة إلى ارتفاع نحو ستين سنتم وقطر يبلغ مئة وعشرين سنتم، وأيضاً بئر بيزنطية لجمع ماء الشتاء.

٣ ـ طبقة يونانية محفوظة جزئياً، عثر فيها على دمى طينيّة ومقابض جرار تحمل أختاماً باللغة اليونانية، وكسرات فخاريّة.

٤ ـ طبقة من عصر الحديد الفارسي (الفينيقي بين ٦٠٠ و٥٠٠ ق.م) وفيها مجموعة كبيرة من جرار الفخار للتموين عددها خمس عشرة جرة، محفوظة جيداً. وهذا الاكتشاف يعني أن المدينة الفينيقية تمتدّ إلى ذلك المكان، ويفيد معادلة النظرة إلى المدينة الفينيقية خاصة لأنه لا مراجع أو نصوص تتحدث عن هذه المدينة في ذلك التاريخ. كذلك وجدت كميات وافرة من النقود تمثّل مختلف العصور ومجموعة من الفوانيس.

● في ساحة الدباس، عثر على أربعة جدران ضخمة تفصل بين الواحد والآخر مسافة متر تقريباً. ويُعتقد أن هذا الموقع ضمّ قديماً منازل ضخمة قد تكون لأغنياء أو منشآت باهظة التكاليف. وعثر أيضاً على هيكلين عظميّين وعلى بقايا جثّة وضعت في جرّة بعد حرقها، بالإضافة إلى فخاريات يونانية ورومانية وبيزنطيّة وقطع نقود رومانيّة.

واكتشفت أيضاً قناة بيزنطية توسّطت الجدران الضخمة، إضافة إلى قطع فخارية دائرية الشكل حملت آثار حريق، وربما استعملت كموقد في أحد العصور. وفي الموقع نفسه، اكتشفت قطعة فسيفساء ضخمة تمتدّ على طول ١٦ متراً، وقد اخترقها بناء.

● في منطقة سوق أياس، تمّ اكتشاف مجموعتين من البيوت يفصل بينها شارع يمتدّ من الشمال إلى الجنوب. وكلّ مجموعة هي عبارة عن بيوت تمّ بناؤها

بطريقة هندسيّة تختلف فيها التقسيمات بين مجموعة وأخرى وبين وحدة سكنية وأخرى. فاتّبع كلّ شخص التقسيم الذي يلبّي حاجته ويتوافق مع ذوقه. وبين المجموعة السكنية يمتدّ شارع بعرض مترين، وهو يتفرّع عن الشارع الرئيسي المتّجه نحو البحر. والمنازل تدلّ على أنها كانت مساكن تجار، إذ وجدت فيها كميات كبيرة من الجرار المستعملة آنذاك لنقل البضائع. وقد أوضحت الكتابة التي وجدت في الموقع أن السكان تعاطوا التجارة الخارجيّة البحريّة وليس التجارة الداخلية لقربهم من الميناء.

جبيل

المدنيّة والحضارة تدينان لها، فهي مهد الأبجدية ومقلع الحرف الأول. إنها جبيل المدينة الأقدم في العالم. كثيرون مرّوا بها، وكلهم ذهبوا، تاركين بصماتهم وآثارهم، وتحفظها هي في رحم أرضها تاركة للأجيال المقبلة مهمة استكشافها.

منذ أوائل القرن جاءها المنقّبون يشقون جوفها بحثاً عن كنوز التاريخ والحضارات، أشهرهم بيار مونتي بين ١٩٢٠ و١٩٢٤، وبعده دونان ولوفريه وكالايان منذ ١٩٢٤ حتى ١٩٨٣ عندما توقفت أعمال التنقيب على أثر نشوب الحرب.

على مدى ما يزيد على نصف قرن، خضعت جبيل لحملات تنقيب واسعة على مجمل مساحتها، من السطح إلى الصخر. وأظهرت الدراسات في طبقات الأرض، تتابع احتلالات مختلفة وتطوراً متواصلاً للهندسة المدنيّة والتخطيط المديني. وفيها شهد العالم ولادة الحياة المدينيّة وتطوّرها.

وبعد توقف دام نحو عشرة أعوام، استؤنفت أعمال التنقيب في مدينة الحرف. وكانت أعمال التنقيب التي جرت في هذا الموقع خلال الستينات، أظهرت صفاً من الأعمدة تقوم على جانبي طريق رومانية كاملة، أظهرت الدراسات أنها تمتدّ من مدخل جبيل الرئيسي من جهة الأوتوستراد مروراً بالسوق القديمة، وصولاً إلى القلعة.

وبعد استئناف أعمال التنقيب، تمّ العثور على بلاط الطريق الروماني وعلى آثار لعجلات العربات التي كانت تستعمل للنقل في تلك الأيام. وتعبر هذا الطريق الروماني مدخل جبيل الروماني الأصيل، على خط مستقيم يصل إلى واجهة القلعة.

وبين طريق طرابلس ـ جبيل القديم والسكّة الحديد تقاطع طرق تقوم عليه أعمدة مزدوجة ضخمة من الغرانيت.

ويمتدّ الطريق الروماني من مدخل جبيل ناحية الأوتوستراد في الاتجاه الشمالي الشرقي مروراً بالسوق القديمة لتصل إلى أسفل القلعة حيث خادرة، وهي مكان صغير تمارس فيه طقوس التعبّد لإلهة الماء. وكان يقوم في هذا المكان تمثال الإلهة أيجيا وأمامه نبع ماء. والتمثال حالياً في المتحف الوطني، ولا تزال قاعدة النبع والجرن في مكانهما الأصلي في جبيل.

صيدا

أدّت أعمال التنقيب التي جرت في مدينة صيدا في تشرين الثاني ١٩٩٥ إلى اكتشاف أكثر من ستة وأربعين قبراً ومجموعة من الهياكل العظيمة في الحفرية التي تعود إلى المواطن فخري فخري في محلة المدينة الصناعية القديمة. واشتملت المكتشفات على هيكل عظمي يعود إلى طفل صغير على وجهه شكل قناع، من المرجّح أن يكون عبارة عن رمز لإلهة الطفولة، بالإضافة إلى «خلاخل» برونزية شبيهة بالحلقات المربوطة في أقدام تلك الهياكل.

وظهرت على عمق ثلاثة أمتار ونصف المتر هياكل عظيمة داخل توابيت صخرية إلى جانب فخاريات وجرار. أما على عمق أربعة أمتار ونصف المتر فتمّ العثور على مدافن عدّة تفصل بين الواحد والآخر مسافة متر واحد.

ورجّح الخبراء أن تعود المقابر المكتشفة إلى الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، إضافة إلى قبور يونانيّة ورومانية، ممّا يعني أن المنطقة المدفنيّة استخدمت في فترات متتابعة.

ويُعتقد أيضاً أن هذه المدافن قد نبشت سابقاً لأن موجوداتها تقتصر على الخلاخل التي توضع عادة في الأقدام.

وفي أواخر حزيران ١٩٩٧، تمّ اكتشاف حمّامات رومانيّة إثر حفريات قامت بها المديريّة العامّة للآثار.

الصرفند

أدّت الأعمال التي جرت في المدينة خلال تشرين الثاني ١٩٩٥، والتي كان من المفترض أن تمهّد لمدّ قسطل للمياه، إلى اكتشافات أثريّة مختلفة، تشتمل على أعمدة رخاميّة وأرضيّات من الفسيفساء وأحجار صخريّة كبيرة.

ورجّح خبير من منظمة «الأونيسكو» الذي انتدبته المديرية العامة للآثار للإشراف على أعمال التنقيب، أن تعود المعالم المكتشفة إلى تقسيمات سكنيّة غير محدّدة الهويّة، وهي تمتدّ تحت مبانٍ عدّة بنيت في العصور الحديثة. وممّا يعزز هذا الاعتقاد وجود آبار وإمدادات توصل المياه إلى المنازل.

وكانت أعمال التنقيب التي قام بها خبراء أميركيون في الصرفند عام ١٩٧٠ تكشّفت عن مغاور ومدافن تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد وصولاً إلى الحقبة الرومانية، إضافة إلى تحصينات بحرية قد تعود إلى مرفأ، ممّا يعني أن باطن الصرفند غني بالمعالم الأثرية.

المراجع

١ ـ تاريخ لبنان ـ الدكتور فيليب حتي ـ دار الثقافة ١٩٦٨.

٢ ـ تاريخ لبنان الحضاري ـ يوسف السودا ـ دار النهار للنشر ١٩٧٩.

٣ ـ الكتاب المقدّس، العهد القديم، المكتبة الشرقيّة.

٤ ـ صور، حاضرة فينيقيّا ـ معن عرب ـ دار المشرق ١٩٧٠.

٥ ـ تاريخ سوريا ـ جرجي يني ـ دار لحد خاطر.

٦ ـ ملاحم وأساطير من أوغاريت ـ أنيس فريحة ـ دار النهار للنشر ١٩٨٠.

٧ ـ جريدة النهار.

٨ ـ جريدة الأنوار.

المحتويات



Edito Creps
International